أغوتا كريستوف

سيّان

ترجمة: محمّد آيت حنّا

منشورات الجمل

أغوتا كريستوف: **سيّان**

أغوتا كريستوف

سيّان

ترجمة: محمّد آيت حنّا

منشورات الجمل

وُلدت **أغوتا كريستوف** سنة ١٩٣٥ بهنغاريا، وغادرتها في سنّ العشرين لاجئة إلى سويسرا، وهناك سلمت حياتها القروية البسيطة إلى قساوة حياة العمّال، مثلما سلّمت لغتها الأمّ إلى اللغة الفرنسية (اللغة العدوّ بتعبيرها). كتبت أغوتا كريستوف كلّ أعمالها الأساسية بالفرنسية على الرغم من أنّها لم تكن تعرف حرفاً من هذه اللغة حين وصلت إلى سويسرا، فتميّز متنها أساساً بطابعه المزدوج، إذ هي تكتب وفي الآن نفسه تقدم خطاطات تمارين للكتابة. يعكس كتابها **الدفتر الكبير** هذا الطابع المزدوج ويضيء في الآن نفسه شيئاً من حياتها التي فصّلتها في سيرتها المقتضبة «الأمية».

توفيت سنة ٢٠١١ في نيوشاتل بسويسرا، بعدما خلّفت متناً مهمّاً يتكوّن أساساً من روايات (**الدفتر الكبير - البرهان - الكذبة الثالثة - أمس**) والعديد من المسرحيات والتمثيليات الإذاعية.

محمد آيت حنّا. كاتب ومترجم مغربي مهتم بالفلسفة والأدب والجماليات. وُلد سنة ١٩٨١ بالرباط وبها أكمل مساره الدراسي. حصل على شهادة التبريز في الفلسفة. يدرِّس بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالدار البيضاء. من مؤلفاته: **الرغبة والفلسفة، مدخل إلى قراءة دُلوز وغوتاري** (الدار البيضاء ٢٠١٠)؛ **عندما يطير الفلاسفة**، قصص (الدار البيضاء ٢٠٠٧). صدر له عن منشورات الجمل ترجمة كتاب كاظم جهاد: **حصّة الغريب، شعرية الترجمة وترجمة الشعر عند العرب** (٢٠١١) وترجمة رواية **الغريب** لألبير كامو (٢٠١٣).

أغوتا كريستوف: **سيّان**، الطبعة الأولى

ترجمة: محمّد آيت حنّا

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

كلمة

نُشرت النّصوص التي تشكّل متن هذا الكتاب سنة ٢٠٠٥، هي إذن آخر أعمال أغوتا كريستوف المنشورة، لكنّها تمتدّ طيلةَ حياتها. استمرّت في كتابتها زمناً متفرّقاً، بحيث رافقت هذه النّصوص رواياتها وأعمالها وشكّلت في غير ما موضع مَعيناً لتلك الأعمال وصدى لها. ولربّما تكون هذه النّصوص أكمل ما كتبت الكاتبة فنيّاً، وأكثرها تعبيراً عمّا أرادت قوله على امتداد مسيرتها الإبداعية: سيّان!

المترجم

السّاطور

«تفضّل يا دكتور. نعم، هنا. نعم، أنا من هاتَفك. زوجي تعرّض لحادث. نعم، أحسبه حادثاً خطيراً. لا بل شديد الخطورة. ينبغي الصّعود إلى الطّابق. هو في غرفة نومنا. مِن هنا. اعذرني، السّرير غير مرتّب. أنت بالطّبع تتفهمّني، لقد ذهلتُ قليلاً حين رأيت كلّ هذا الدّم. أتساءل أنّى ستواتيني الشّجاعة لتنظيف كلّ هذا. أعتقد أنّي سأذهب بالأحرى للعيش في مكانٍ آخر.

«هي ذي الغرفة. تعالَ. إنّه هنا، بجانب السّرير، على البساط. ثمّة ساطور مغروس في جمجمته. هل تريد فحصه؟ أجل، افحصه. إنّه حقاً حادثٌ بليد، أليسَ كذلك؟ سقط من سريره أثناء نومه، ووقع على هذا السّاطور.

«نعم إنّ السّاطور لنا. يكون في العادة بالصّالون، قرب المدفأة، نستخدمه في قطع الأعواد الصّغيرة.

«ما الذي أتى به هنا قربَ السّرير! لا أدري. لا شكّ في أنّه أسنَد السّاطور بنفسه إلى منضدة غرفة النّوم. ربّما كان يخاف من اللّصوص. منزلنا منعزل جداً.

تقول إنّه ميّت؟ لقد فكّرتُ فوراً في أنّه ميّت. لكنّي قلت إنّ الأَوْلى أن يتأكّد طبيبٌ من ذلك.

«تريدُ إجراءَ اتّصالٍ؟ آه، نعم! بالإسعاف، أليس كذلك؟ بالشّرطة؟ لماذا الشّرطة؟ إنّه حادث. كلّ ما في الأمر أنّه سقط من السّرير على السّاطور. نعم، الأمر نادر الحدوث. لكن ثمّة العديد من الأمور التي تحدث هكذا، ببلادة.

«أوه! ربّما أنتَ تظنّ أنّي أنا من وضع السّاطور بجانب سريره، كي يقع عليه؟ لكن أنّى ليَ أن أعلم أنّه سيسقط من سريره!

«ولربّما وصل بك الظّن حدَّ الاعتقاد في أنّي دفعته، ثمَّ عدت إلى النّوم بهدوءٍ، وحيدةً في سريرنا الكبير، دون أن أسمع شخيره أو أشمَّ رائحتَه!

«عيب يا دكتور، لن تفترض أشياء مماثلة، لا يمكنك. . .

«صحيح، لقد نمتُ عميقاً. منذ سنواتٍ لم أنم بهذا الشّكل. لم أستيقظ حتّى الثامنة صباحاً. نظرت من النّافذة. كانت ثمّة رياحٌ. السحبُ، بيضاءَ رماديةً مستديرةً، تتراقص أمام الشّمس. كنت سعيدة، وكنت أفكّر في أنّ الإنسان لا يمكن أن يتوقّع مع السُّحب شيئاً. ربّما ستتبدّد -كانت تجري بسرعة-، وربّما تتراكم فتسقط على أكتافنا مطراً. سيّان عندي. أحبُّ الأمطارَ كثيراً. ثمّ إنّ كلّ شيءٍ بدا ليَ رائعاً هذا الصّباح. أحسست نفسي تخفّفت، تخلّصت من ثقلِ ظلّ سنواتٍ يـ. . .

«إذّاك فقط استدرتُ فرأيت الحادثَ، واتّصلتُ بك فوراً.

«أنتَ أيضاً تريد استخدام الهاتف. هو ذا الجهازُ. تنادي الإسعافَ. تريدهم أن يحملوا الجسد، أليسَ كذلك؟

«تقول إنّ الإسعاف لأجلي. لا أفهم، أنا لست مصابةً. لا شيء يوجعني، أحسّ نفسي بأفضلِ حالٍ. الدّم الذي على قميص نومي، ليس سوى دم زوجي الذي فارَ عندما. . .»

قطارٌ إلى الشّمال

تمثالٌ في حديقةٍ قربَ محطّة مهجورة.

يمثّلُ كلباً ورجلاً.

الكلب واقفٌ، بينما الرجل جاثٍ على ركبتَيه، وذراعاه تطوّقان عنق الكلب، ورأسه مائلٌ قليلاً.

عينا الكلب تنظران إلى السّهل الذي يمتد إلى ما لانهاية يسارَ المحطّة، وعينا الرّجل مسمّرتان تنظران مباشرةً أمامَه، من فوق ظهر الكلب، إلى قضبان السكّة الحديد التي اجتاحتها الأعشاب، ومنذ زمنٍ طويلٍ ما عادَ يمرّ من فوقها أيّ قطارٍ. القرية التي كانت تخدمُها المحطّةُ خلت من سكّانها. ثمّة بعض سكان المدينة، من محبّي الطبيعة والعزلة، يأتون ليقيموا فيها إبّان الموسم اللّطيف، لكنّهم جميعاً يملكون سيّاراتٍ. وهناك أيضاً الشّيخ الذي يجوب الحديقة مؤكّداً أنّه نحتَ الكلبَ، وأنّه حين قبّله -إذ كان يحبّه كثيراً- تحوّل بدوره إلى حجر.

وحينَ يُسأل كيف يعقل، والحال هذه، أن يكون حيّاً، من دمٍ ولحم، يجيبُ بأنّه ينتظر ببساطةٍ القطار إلى الشّمال.

لا أحد يملك القوّة لإخباره أنّ ليس ثمّة قطارٌ نحو الشّمال، ليس ثمّة قطارٌ إلى أيّ مكان. يعرضون عليه نقله بالسيّارة، لكنّه يهزّ رأسَه رافضاً:

- كلاّ، لن أذهب بالسيّارة، إنّهم ينتظرونني بالمحطّة.

يعرضون عليه نقله إلى المحطّة، إلى أيّ محطّة بالشّمال.

فيهزّ راسه مجدّداً:

- كلاّ، شكراً. عليّ الذّهاب بالقطار. لقد كتبت رسائل إلى أمّي. وإلى زوجتي أيضاً. أخبرتهما أنّي سأصل في قطار الثامنة مساءً. زوجتي تنتظرني في المحطّة صحبة الأطفال. أمّي تنتظرني أيضاً. منذ أن مات أبي وهي تنتظرني كي أحضر مراسم الدّفن. وعدتُها أن أحضر الدّفنَ. أنوي أيضاً رؤية زوجتي وأطفالي الذين... تخلّيتُ عنهم. نعم، لقد تخلّيت عنهم، كي أصيرَ فنّاناً عظيماً. مارست الرّسمَ والنّحتَ. والآنَ أرغبُ في العودة.

- لكن إلى أيّ تاريخ يعود كلّ ذلك: الرّسائلُ إلى أمّك وزوجتك، ودفنُ والدك..؟

- كلّ ذلك يعود إلى... إلى التّاريخ الذي سمّمت فيه كلبي حين لم يُرد تركي أرحل. كان يتعلّق بسترتي وسروالي، ويعوي كلّما هممتُ بالصعود إلى القطار. لذا سمّمته، ودفنتُه تحتَ التمثال.

- التمثالُ نُحتَ قبل ذلك؟

- كلاّ، لقد نحتّه غداة ذلك. نحتُّ كلبي هنا، فوق قبره. وحين وصل قطار الشّمال، قبّلته لآخر مرّة، فتحجّرتُ مطوّقاً عنقَه. حتّى وهو ميّت لم يتركني أرحل.

- ومع ذلك أنت هنا، وتنتظر القطارَ إلى الشّمال.

يضحك الشّيخ:

- لستُ أحمقَ كما تظنُّ. أعلم أنّ لا وجود لي، أنا حجرٌ،

متكّئ على ظهر كلبي. أعلم أيضاً أنّ القطارات ما عادت تمرّ من هنا. كما أعلم أنّ والدي قد دُفن منذ زمنٍ طويل، وأنّ أمّي، التي قد ماتت بدورها، لا تنتظرني في أيّ محطّةٍ، لا أحدَ ينتظرني. زوجتي تزوّجت مرّة أخرى، وأولادي كبروا. أنا مسنٌّ سيّدي، مسنٌّ أكثر ممّا تظنّ. أنا تمثالٌ، ولن أرحلَ. كلّ هذا ما هو إلاّ لعبةٌ بيني وبين كلبي، لعبة لعبناها طيلةَ سنواتٍ، لعبةٌ ربحَها هو مسبقاً، منذ اللّحظة التي عرفتُه فيها.

في بيتي

هل سيحدث ذلك في هذه الحياة أم في حياةٍ أخرى؟

سأعود إلى بيتي.

في الخارج، ستعوي الأشجار، لكنّها لن تخيفني بعدُ، لا هيَ ولا السّحب الحمراء أو أضواء المدينة.

سأعود إلى بيتي، بيتي الذي لم يكن لي يوماً، أو كان لي في زمنٍ أبعدَ من أن أتذكّره، لأنّه لم يكن أبداً، أو ما كان حقّاً بيتي.

غدا سيكون عندي بيتي، أخيراً، في حيّ فقير من أحياء مدينةٍ كبيرة. حيّ فقير، إذ كيف السّبيل إلى الاغتناء حين يكون المرء قادماً من مكان آخر، من لا مكان، وبلا رغبةٍ في أن يصير غنيّاً؟

في مدينة كبيرةٍ، لأنّ المدن الصغيرة ليست بها سوى منازل قليلة للمحرومين، وحدها المدن الكبيرة تملك عدداً لا يحصى من الأزقّة المظلمة إلى ما لانهايّة، حيث تتراكم المخلوقات من أمثالي.

في تلك الأزقّة سأمشي صوبَ منزلي.

سأسير في الأزقّة تجلدني الرّيح ويضيئني القمر.

نساءٌ سمينات يشممن الهواء، ينظرن إليّ مارةً دون أن ينبِسنَ بكلمة. أمّا أنا، فسأحيّي الجميع، مفعمةً بالسّعادة. أطفال شبه

عراةٍ يتشقلبون عند قدميَّ، فأحملهم متذكّرةً أطفالي الذين سيكونون قد صاروا كباراً، أغنياءَ، وسعداء في مكانٍ ما. سأداعب هؤلاء الأطفال، أطفالَ أيّ كانَ، وأمنحهم أشياءَ برّاقةً نادرة. سأُنهضُ الرّجلَ الثمل الذي سقط في جدول الماء، وسأواسي المرأة التي تركض صارخةً في اللّيل، سأصغي إلى معاناتها، وسأهدّئ من رَوعْها.

وإذ أصير في بيتي، سأكون متعبةً، فأنام على السّرير، أيّ سرير، والسّتائرُ ستموج كالغيوم.

هكذا سيمرّ الوقت.

وأمامَ ناظريَّ ستمرّ صور هذا الكابوس الذي كانَ حياتي.

لكنّها لن تؤلمني بعد.

لأنّي سأكون في بيتي، وحيدةً، عجوزاً، وسعيدة.

القناة

كان الرّجل يتابع حياته تضيع.

على بعد أمتار منه، كانت سيّارته ما تزال مشغّلةً.

والأرض كانت حمراءَ وبيضاء، مزيجاً من الدّم والثلج، دمَ حيضٍ ومنيّاً، وأبعد قليلاً كانت ثمّة زرقةُ الجبال النيليّةُ يحوطها عقدٌ من نور.

وفكّر الرّجل:

«يوقدون مبّكراً. لم يهبط اللّيل بعد. نجومٌ. لا أعرف أسماءها. لم أعرفها يوماً»

غثيانٌ، دوّارٌ. يعاود الرّجل النّوم، فيرى حلمَه مرّةً أخرى، كابوسَه، نفسَه، دائماً نفسه.

يمشي في أزقّة مدينةِ مسقطِ رأسِه، ويسعى إلى الالتحاق بابنه. ابنُه ينتظره في أحد المنازل، نفس المنزل الذي كان هو فيما مضى ينتظر فيه والِدَه.

لكنّه ضائعٌ، لا يتذكّر المكانَ، مستحيل أن يجد زقاقه وبيتَه.

«لقد غيّروا كلَّ شيء، كلّ شيء».

يبلغ ساحةَ برانسبيال، حوله البيوت تلمع، نعم، لقد شيدت من معدن أصفر وأخضر، وترتفعُ حتّى السّحاب.

«ما الذي فعلوه؟ هذا فظيع!»

ثمّ ما لبث أن فهِمَ.

«لقد عثروا على الذهب. الذهب الذي كان الشّيوخ يحكون عنه. ذهب الصّخور، ذهب الأساطير. لقد وجدوه، وبنوا مدينةً من ذهب، مدينة فريدةً، مدينة كوابيس.»

ترك السّاحة وألفى نفسه في زقاق قديمٍ واسعٍ تحفّه منازل من خشبٍ وحظائر متهاوية. الأرضيّة مغبرّة، يحسّ نعومةً وهو يسير حافيَ القدمين فوق تلك المادّة.

«هو ذا زقاقي، لقد وجدتُه، لم أعد تائها، لم يتغيّر هنا شيء»

ومع ذلك يهيمن على الأجواء توتّرٌ غريبٌ.

يستدير الرّجل فيرى فهداً أمريكياً في الطّرف الآخر من الزّقاق. حيوانٌ رائعٌ، رمليٌّ ومذهّبٌ، وبرُه النّاعمُ يلمع تحت أشعّة الشّمس الحارقة.

كلّ شيء يضطرم. المنازل والحظائر مشتعلةٌ، وعليه أن يمشي بين جداري اللّهب الملتهب، لأنّ الفهد الأمريكيّ أيضاً بدأ في السّير واقتفائه عن بعدٍ ببطءٍ مهيبٍ.

إلى أين المفرّ؟ لا منفذَ. إمّا النيران وإمّا الأنياب. ربّما أقصى الزّقاق؟

لابد أن ينتهي هذا الزقاق في مكان ما، لا وجودَ للاّنهاية، كلّ الأزقّة تنتهي، تفضي إلى ساحةٍ أو زقاقٍ آخر. النّجدة!

صرخ. الفهد الأمريكيّ خلفه، يكاد يلتصق به. لا يجرؤ الرّجل على الاستدارة، لا يستطيع التّقدّم أكثر، قدماه تتسمّران

في الأرض. ينتظر بهلعٍ أن يقفز الفهد الأمريكيّ على ظهره، أن يمزّقه من كتفيه إلى فخذيه، أن يخرّب رأسه.

لكنّ الفهد الأمريكي يتجاوزه، يكمل طريقَه، غير عابئٍ، لكي يجثوَ عند قدمَي طفلٍ لم يكن هناك من قبل، لكنّه ظهرَ الآن، وها هو يداعب الفهد الجاثيَ عند قدميه.

الطّفل ينظر إلى الرّجل الذي شلّه الخوف.

- هو ليس متوحّشاً. إنّه لي. لا ينبغي أن تخاف. إنّه لا يأكل اللّحم، لا يلتهم سوى الأرواح.

لم تعد ثمّة نيرانٌ، خمد الحريق، وصار الزّقاق مجرّد رمادٍ ناعمٍ بارد.

أضاءت ملامحَ الرّجل ابتسامةٌ:

- أنتَ ابني ربّما؟ كنت تنتظرني؟

- لم أكن أنتظر أحداً، لكنّك أبي. اتبعني.

قاده الطّفل إلى تخوم المدينة حيث يسري نهرٌ ذو انعكاساتٍ صفراءَ، تضيئهُ مصابيح كشّافة قويّة. أجسادٌ نائمةٌ على ظهرها تستسلم للنّهر يجرفُها، عيونُها محدقة صوب السّماء المزيّنة بالنّجوم.

قال الرّجل هازئاً:

- أهِي مخلوقات حُلم؟ أجل، مسنّون. لقد تعرّفت على أبي وأمّي في ماء نهر الشّباب الأبديّ.

تمطّى الفهد الأمريكي المذهّب، التمثاليّ، فوق واجهة صرحٍ عملاقٍ، وقال:

- كلاّ، أنت شديد الغباء. لا تضحك. هذا ليس نهر

الشّباب الأبديّ، إنّها قنوات المدينة تصرفُ المخلّفات. الموتى، وكلّ الأشياء الأخرى التي نرغب في التّخلّص منها، مثل تأنيب الضّمير والأخطاء والهجران والخيانات والجرائم والقتل.

- هل حدثَ قتلٌ؟

- نعم. كلّ ذلك يحمله ماء الخلاص الشّفيف. لكنّ الموتى يعودون، البحر لا يقبلهم. يصرفُهم عبر قناةٍ أخرى تحملهم إلى هنا. بعد ذلك، يطوفون حول المدينة مثل أرواح الزّمن الماضي.

- ومع ذلك يبدون سعداءَ.

- وجوههم تجمّدت في صورة أبديّة تعكس اللّباقةَ، لكن من ذا الذي بوسعه أن يعرفَ ما يحسّون به؟

- أنتَ على الأرجح.

- أنا لا أرى إلاّ الخارج. أعاينُ.

- ماذا عاينتَ؟

- إنّ كلّ خارجٍ يلفّه خارجٌ آخرُ يصيرُ داخلاً لا يقلّ حقيقةً عن داخلٍ ينطوي على داخلٍ يتحوّل إلى خارجٍ.

- لستُ أفهم.

- لا أهميّة لذلك. ستموت، وتسقط في القناة، وتدور حول المدينة.

- كلاّ. أنا حين أموت سأصعد صوبَ النّجوم.

- حتّى الطّيور تسقط حين تموت، بَلْهَ أنت الذي لا تملك أجنحة!

- وابني؟

- إنّه هنا، خلفك، هو من سيعينُك.

يرفع الطّفل يده الواهنة ليمسّ ظهر الرّجل، فيسقط الرّجل دون أن تندّ عنه صرخة. ينقاد لِمَاءِ القناةِ يجرفُه، عيونه محدقةٌ صوب النّجوم التي لا يراها.

يبتعد الطّفل هازاً كتفَيه.

يتنّهد الفهد الأمريكي:

- هكذا، جيلاً بعد جيل.

يريح رأسه الضّخمة على ساقيه الأماميّتين، وينهار الصّرح بأكمله.

موتُ عاملٍ

غير مكتملٍ ظلَّ المقطع اللّفظيّ، بلا معنى، معلّقاً بين النّافذة والمزهرية.

غير مكتملةٍ ظلّت حركة أصابعك الموهَنة، وهي ترسم نصف حرف L كبيرٍ فوق الشراشف.

- لا!

أكنت تحسب أنّه يكفيك إبقاء عينيك مفتوحتين لكي لا يبلغك الموت. جحظت عيونك حتّى أقصى طاقتِك، لكنّ اللّيل أتى، وضمّك بين ذراعيه.

أمس فقط، كنت تفكّر في سيارتك التي لم تفرغ من غسلها ذاك السّبت، الذي صار بعيداً جداً، حينَ لكمك الألم في معدتك لأوّل مرّة.

«سرطان»، هكذا شخّص الطّبيب الحالة، وأرعبتك نظافةُ سريرك بالمستشفى.

حتّى يداك ابيضّتا بتعاقب الأيام والأسابيع والشّهور. صارت حالتك ميؤوسةً، أظافرك ما عادت تتكسّر، تظلُّ طويلةً وورديّة، مثل أظافر موظّف.

مساءً، كنتَ تبكي بصمت، دون أن تشهق أو تنشج، فقط دموع تسيل ببطءٍ على الوسادة، دون ضجيج، في الغرفة

المشتركة حيث أضواءُ المصابيح تحفر أخاديد في خدود جيرانك المرضى وعيونهم.

كلاّ، ما كنتَ وحدك.

كنتم ستّة أو سبعةً تترقّبون الموت بين يومٍ وآخر.

مثلما كان الحال في الفبْرَكة. هناك أيضاً لم تكن وحدك، كنتم ما بين عشرين وخمسين تنجزون الفعل نفسَه ما بين يومٍ وآخرَ.

فَبْرَكَتُك لم تكن تصنع السّاعات فحسب، وإنّما كانت تصنع أيضاً جُثثاً.

وفي المستشفى، كما في الفبركة، ما كان لديكم ما تقولنه لبعضكم.

أنتَ، كنت تظنّ أنّ الآخرين قد ناموا، أو لربّما ماتوا.

والآخرون، كانوا يظنّون أنّك نمت، أو لربّما متَّ.

لم يكن أحدٌ يتكلّم، وأنت أيضاً ما كنت تتكلّم.

ما كنت ترغب في الكلام، كنت تريد فقط أن تتذكّر شيئاً، لكنّك لم تكن تعرف ما هو.

لم يكن ثمّة ما يمكن أن تتذكّره.

ذكرياتك، شبابك، قوّتك، حياتك، كلّها سلبتها الفبركة. لم تترك لك إلاّ التّعبَ، التّعب القاتل، تعب أربعين سنة من العمل.

ما عدت آكلُ

الوقت متأخّر. ما عدت آكل. أرفض الخبز واللّعبَ، كما أرفض ثديَ الأمّ، الذي يعطونه لكلّ حديثي الولادة في ملبنة الألم.

ما إن تمكّنت من العيش حتّى أطعموني الذرة والفاصوليا.

لكلّ الأطباق غير المعروفة بنيتُ معبداً، عبر سرقة حبات البطاطس من الحقول المترامية في مسقط رأسي.

واليوم عندي مفرش مائدة أبيض، وأواني الكريستال والفضّة. لكنّ السّلمون وذيول الظباء أتت متأخّرة.

ما عدت آكل.

باسماً أحمل كأسي المليئة بنبيذ فاخر على شرف ضيوفي لوجبة المساء. أضع كأسي فارغةً، أصابعي البيضاء النّحيلة تداعب الزّهور المطرّزة على الشراشف.

أتذكّر...

وأضحك متابعاً ضيوفي ينكبّون شرهين على خنّة الأرنب الذي اصطدته بنفسي من حقول بلادهم الشحيحة.

الأرنب الذي ليس في الواقع سوى قطّهم المنزليّ المفضّل.

المدرّسون

إبّان سنوات دراستي، كنت أمحض مدرسِيَّ حبّاً كبيراً. كانوا يخلّفون عندي الكثير من التقدير والإعجاب لدرجة أنّني كنت أحسّ نفسي مجبرةً على الدّفاع عنهم ضدَّ فظاظة زملائي.

تعذيب المدرّسين مجّاناً كان يثيرني. حتّى وإن كانوا يمنحون علامات سيّئة. العلامات السيّئة لا أهميّة لها، لمَ إذن الإساءة لهذه الكائنات الضعيفة التي لا تستطيع الدّفاع عن نفسها؟

أتذكّر أحد زملائي، الذي كانت من المهارة بحيث يتسلل بلا صوتٍ خلف مدرّس علوم الأحياء، ويسلُّ أعصابه من عموده الفقريّ، كي يوزّعَها علينا.

كانت ثمّة العديد من الأشياء التي يمكن أن تُصنع من تلك الأعصاب، مثلاً أوتار الآلات الموسيقيّة. وكلّما صار العصبُ بالياً كلّما صار أطوعَ.

مدرّسُ الرّياضيات كان مختلفاً جداً عن مدرّس الأحياء. كانت أعصابه غير صالحة بالمرّة. بالمقابل كانت له جمجمة صلعاء تماماً، ممّا يسمح برسم دوائر مثالية عليها باستخدام البركار. دوائر كنت أدوّن محيطها بدقّة في مفكّرتي، كي أستخرج منها لاحقاً بعض الاستنتاجات.

بالطّبع لا يجد زملائي، وهُمُ الأفظاظ الجَهَلة، أفضل من

قذف دوائري تلك بحقارةٍ بواسطة مقاليعهم-المصنوعة من الأعصاب التي ذكرتها آنفاً- حين يستدير المدرّس ليرسم على السّبورة السّوداء المثلث المستطيل الخاصّ بمبرهنة فيثاغورث.

سأضيف كلماتٍ عن مدرّسنا الموهوب، مدرّس الآداب. وسأختصر القول، لأنّي أعرف أنّ الحديث عن ذكرياتنا المدرسية يصيب المستمع بالملل.

ذات مرّة، إذن، رماني هذا الرّجل بالطّباشير كي يستلّني من نعاسي الصّباحي المعتاد. أكره أن أوقَظ على هذا النّحو، لكنّي لم أغضب، لفرط حبّي للمدرّسين والطّباشير. وبسبب نقص الكلسيوم الذي كنت أعانيه، كنت أستهلك آنذاك كميّة هائلة من الطّباشير. كان الأمر يصيبني بالحمّى، لكنّي لم أستغلّ ذلك يوماً كي أتهرّب من المدرسة، لأنّي -أكرّرها بلا توقّف- كنت أحبّ المدرّسين، وخاصة (صاحب الموهبة الرّفيعة) مدرّس الآداب.

لهذا، أخذتني الشّفقة بهذا الشقيّ، بعد أن اغتالَ تلاميذُه قصيدةً، فوضعتُ حداً لمعاناته، نصف ساعةٍ بعد الظّهيرة بالضّبط، في الحديقة المجاورة للمدرسة، متوسّلةً بحبل قفزٍ نسيته هناك البنات الصّغيرات.

جوزيتُ على فعلي الإنسانيّ بسبع سنواتٍ سجناً. على أنّي لم أندم على ذلك، لشدَّة ما كانت تلك السنوات السّبع غنيّة بالتّعلّم من كلّ صنفٍ، ولفرط حبّي للسجّانين وإعجابي بمدير السّجن.

لكن تلك قصّةٌ أخرى.

الكاتب

اعتزلتُ النّاس كي أكتُبَ عملَ حياتي.

أنا كاتبٌ كبيرٌ. لا أحد بعدُ يعلم بذلك، لأنّي لم أكتب بعدُ شيئاً. لكن حين سأكتب كتابي، حين سأكتب روايتي..

لهذا تخلّيت عن عملي كموظفٍ وعن... عمَّ تخليتُ أيضاً؟ لا شيء آخر. لأنّي لم يكن لي يوماً أصدقاءٌ، وصديقاتي كنّ أقل من أصدقائي. اعتزلت العالمَ لأكتب رواية عظيمة.

المشكلة أنّي لا أعلم ما موضوع روايتي تلك. ولقد كتبوا أصلاً كلَّ شيء وفي كلّ شيء.

أحدس أنّي كاتبٌ كبير، أحسّ بذلك، لكن بالنّسبة لي ليس ثمّة موضوعٌ جيدٌ وعظيمٌ بما يكفي لموهبتي.

لهذا أنا أنتظر. وفي انتظاري أعاني بالطّبع؛ أعاني من الوحدة وأحياناً أعاني أيضاً من الجوع، لكنّ تلك المعاناة نفسها هي ما أعقد عليه الأملَ في أن يوصلني إلى حالة نفسية تسمح بانبثاق الموضوع الجدير بموهبتي.

للأسف، تأخّر الموضوع، ووحدتي ازدادت ثقلاً وإرهاقاً، يلفّني الصّمتُ، الفراغ يضرب أوتاده في كلّ مكان، مع أنّ بيتي ليس كبيراً جداً.

لكن هذه الأشياء الثلاثة الفظيعة، الوحدة والصّمت والفراغ، تقوّض سقفَ بيتي وتنطلق حتى تبلغ النّجومَ، تتمطى إلى ما لانهاية، فلا أعود أدري أهوَ المطر أم الثلج، أهيَ رياحُ الصّبا أم رياح السّموم.

وأصرخ:

- سأكتبُ كلّ شيء، كلّ ما يمكن أن يُكتبَ.

فيجيبني صوتٌ؛ صوتٌ متهكّمٌ، لكن المهمّ أنّ صوتاً يجيبني في نهاية المطاف:

- حسناً بنيَّ. أُكتُب كلّ شيء، لكن لا تكتب أكثر من ذلك. فهمتَ؟

الطّفل

أنّهم جالسون هناك، على سطيحةِ مشربٍ. يتابعون النّاس يمرّونَ. النّاس يمرّون، كالعادة، مثل الجميع. مثلما ينبغي، يمرّونَ. النّاس يحبّون أن يمرّوا بدورهم.

أنا أنْجَرُّ، أنجرُّ في إثرهم. أغتاظ، أتوقّف، أبصق، أبكي، ثمّ أجلس على الرّصيف، وأُخرج لساني لكلّ المارّة الذين يمرّون.

يقول المارّة:

- أنت عديم التّربية.

يقول والدايَ:

- نعم، أنت تجلب لنا العارَ.

هما أيضاً يجلبان لي العارَ، لم يشتريا لي البندقيّة، البندقيّة الجميلة التي أردتُها. قالا لي:

- ليست لعبةً جيّدة.

مع أنّي رأيت أبي في الخدمة العسكريّة. كانت لديه بندقيّة، بندقيّة حقيقة، تصلح للقتل. لكنّي حين رأيت بنادق جميلةً للأطفال، بنادق هنود حمر، بنادق صيد، بنادق لعبٍ، قالا إنّها لعبة قبيحة، واشتريا لي لعبة خذروف(*).

أنا هنا جالس على حافة الرّصيف، أنهض، أغتاظ، أبكي، أبصق، أبكي، أصرخ:

- أنتما عديما التربية، أنتما تجلبان لي العارَ: تقولان أكاذيبَ، تتظاهران بالطّيبة! حين أكبر، سأقتلكما!

(*) تسمّى في بعض البلدان العربية «بلبل»، وهي قطعة من خشب أو بلاستيك تلفّ بخيطٍ، وحين يلقى بها تبدأ في الدّوران حول نفسها.

المنـزل

كان في العاشرة من عمره. كان جالساً على الرّصيف ينظر إلى الشّاحنة التي تُحمّل الأثاث والصّناديق.

سأل أحدَ أقرانه الذي جاء يجلس بقربه:

- ماذا يفعلون؟

- قطعاً! يرحلون. أتمنّى أن أصير مرحِّلاً، إنّها مهنةٌ جيّدةٌ. ينبغي أن تكون ضخماً.

- تقصد أنّهم سيسكنون بيتاً آخر؟

- طبعاً، ما داموا راحلين.

- مساكين! هل أصابتهم مصيبة؟

- لماذا مصيبة؟ بالعكس. سينتقلون إلى بيت أرحب وأجمل. لو كنتُ مكانهم لكنت سعيداً.

دخل، جلس على عشب الحديقة، وأخذ يبكي.

- غير ممكن. أن نترك منزلاً لنعيش في آخر أمرٌ محزنٍ، كأنّما قتلنا أحداً.

في سنّ الخامسة عشرة غيّر مدينته. حدث ذلك في فصل الشّتاء. عبْر نافذة القطار كان يتابع طفولتَه تبتعد. ثمّ، مبتسماً، قال لأمّه:

- أتمنّى أن ترتاحي هناك.

لكنّ قدميه ذات يومٍ وطأتا مجدّداً منزله القديم، حدث ذلك يومَ أحدٍ في بداية شهر يونيو/حزيران.

الجار، وهو رجلٌ معاقٌ لطالما أحبّ هذا الولد المؤدّب الصّموت، فرح كثيراً لمرآه.

- اجلِس واحكِ لي ماذا فعلت بكم الأيّام في المدينة الكبيرة.

أجابَ الفتى، وهو يلقي نظرة على الغرفة الوحيدة:

- هنا لم يتغيّر شيء. هل تسمح لي بالخروج إلى الحديقة؟

بخطوةٍ واحدةٍ اجتازَ السّياج، وألفى نفسه مجدّداً في بيته. كانَ الهواء مشبعاً بأريج التّوت الذي نضج أكثر ممّا ينبغي، وأذبلته الشّمس.

تقدّم وراه.

كان المنزلُ ما يزال هناك، ساكناً، فارغاً.

قال له:

- تبدو مُتعباً، لكن على الأقّل ينبغي أن تُدرك أنّني عُدتُ.

ومذّاكَ صارَ يزوره كلّ أسبوعٍ، يتأمّله، ويتحدّث إليه.

«- هل تتألّم قَدْرَ ما أتألّم؟»، سأله ذات ظهيرةٍ، بينما مطر أكتوبر/تشرين الأوّل يجلد بلا رحمةٍ جدرانَ المنزلِ الرّماديّة، والنّوافذ تضطرب في الرّيح.

صاح به باكياً:

- لا تبكِ، أعدك بأن أعود للسّكن هنا دائماً.

اشرأبَّ رجُلٌ من إحدى النّوافذ، وتفحّص الحديقة بنظرةٍ حادّة.

وشوش الفتى وقد قوّضه الألم:

- ثمّة أحدٌ. اتّخذتَ غيري، ما عدتَ تحبّني. أكرَه هذا الرّجل!

انغلقتِ النّافذةُ بصوتٍ قاسٍ، وانطلق القطار، طارَ بينَ الحقول المَيّتة.

ثمّ ما لبث المحيطُ أن فرّقهما، وبعدَه الزّمنُ.

ما عاد الفتى فتىً، صارَ رجلاً.

وصار الزّمن والمحيط وأضواء المدينة الكبيرة والمنازل التي تطاولُ السّحابَ، تهمسُ إليه ليلاً:

- أرأيتَ، أرأيتَ كم صرتَ بعيداً عنّي!

الوجوه، حشد الوجوه، تماثُل الوجوهِ، الضّجيج، الصّخب العبثيّ، الرتّيبُ حدّ مشابهةِ الصّمت، والسّاعاتُ، الأجراس، المنبّهات، الهواتف، الأبواب المصفّحة، وشوشات المصعد، الضحكات، الموسيقى الصّاخبة، التي لا تُحتمل.

فوق كلّ ذلك، صوتٌ خانعٌ، يكاد يكون بليداً، صوتٌ بعيدٌ، حزينٌ، وشائخٌ:

- أرأيتَ كم أنت بعيدٌ عنّي. لقد هجرتني. لقد نسيتَني.

صار الولد الصّغير اليومَ رجلاً غنيّاً. وقرّر أن يعيد بناءَ منزله، منزله الأوّل. كان يملك العديد من المنازل. منزلٌ على شاطئ البحر، وآخر في حيٍّ راقٍ، وشاليه في الجبل. لكنّه رغب في أن يمتلك منزله الأوّل، منزله الوحيد.

قصد مِعماريّاً ووصف له، وصفاً مرتبكاً، منزلَ طفولته.

ابتسم المعماريّ: كُثُر هم من يقصدونَه لإنجاز مبانيَ لا علاقةَ لها بالواقع.

- أحتاج أرقاماً دقيقةً، قياساتٍ. بلا قياسات، لن أستطيع فعل شيء.

- أجل، أفهم. سأكتب، سأقيس. أهمّ شيء هو الشّرفة المفتوحة، والدّوالي التي تتسلّق الجدران. دون أن تنسى الغبارَ على أوراق العنب وعناقيده.

حين بُنيَ المنزلُ أذعنَ:

- نعم، إنّه يشبه تماماً المنزل الآخرَ.

كان يبتسم، لكنّ عينيه كانتا فارغتَين.

أيّاماً بعد ذلك، رحل دون أن يخبر أحداً.

من مكانٍ إلى آخرَ، ومن مدينة إلى أخرى، كان يستقلّ الطائرات والبواخر والقطارات.

دائماً في مكانٍ آخر، هناك حيث لا شيء يشبهه. أضواءُ المدنِ الكبيرةِ الباردةُ، إنّها جميلةٌ ومختلفة، ويستحيل حتّى التّفكير في حبّها.

- لقد نسختُ نسخةً. يا لحماقتي. كأنّما بالإمكان نسخُ ما عرفناه.

فندق كبير، لا وجهَ للشّبه. بساطٌ في الممشى، بساط في البهو.

- رسالةٌ لكَ سيّدي.

في المصعد فتح الرّسالةَ.

«لماذا رحلتَ؟»

صُدمَ. لكنّ المنازل لا تكتب رسائلَ. هي فقط زوجته.

«لماذا رحلتَ؟»

أجل، لماذا؟

الرّسالة تبقى على الطّاولة. وفي اليوم الموالي، ستطير القطارات بعيداً فوق السكّة التي تصرخ من التّعب.

السكّة متعبةٌ لدرجة أنّ القطار توقّف في الخلاء. عطب تقنيّ.

خرج رجلٌ من مقصورة-الأَسِرّة في الدّرجة الأولى. لم ينتبه إليه أحد. نزل المنحدر، وألفى نفسه في حقل ميّت، موحل. انطلق القطار. حين تلاشى هديره بدأ الرّجل في الكلام:

- تبدو متعباً، لكن عليك أن تعرف أنّي عدت.

أمامه ينتصب منزلٌ ساكنٌ عتيق.

- أنت جميل.

أصابعه المتجعّدة تمسح على الجدران المتداعيّة.

- أُنظر، ها أنا أفتح ذراعيَّ وأقَبّلك، كما لم أقبّل المرأة التي ما فكّرتُ حتّى في أن أحبّها.

تحت شرفة المنزل ظهر طفلٌ عيناه تنظران صوبَ القمر.

دنا منه الرّجل.

قال له «أحبّك»، وخيّل إليه أنّها المرّة الأولى التي يستخدم فيها هذه الكلمات المبتذلة.

حدّق فيه الطفل بنظرة فظّة.

قال الرّجل:

- أيّها الولد الصّغير، لمَ تحدّق في القمر؟

أجاب الولد منزعجاً:

- لا أنظر إلى القمر. لا أنظر إلى القمر، أنظر إلى المستقبل.

- المستقبل؟ المستقبل منه أتيت. ليس ثمّة سوى حقول ميّتة وموحلة.

إذّاك عرفه الطّفلُ وأخذ يبكي. شعر الرّجل بالخزي.

- ربّما قد يكون ذلك فقط لأنّني رحلتُ.

أجاب الطّفل، وقد اطمأنَّ:

- حقّاً! أنا لن أرحل أبداً.

صرخت المرأة حين رأت الشّيخ جالساً تحت الشّرفة. لم يتزحزح حين سمع صراخها. مع أنّه لم يمت بعدُ. كان فقط جالساً هناك ينظر إلى السّماء مبتسماً.

أُختي لين، أخي لانُوِّي

أختي لين، أهيم في الطّرقات، لا أجرؤ على أن أخبرك، ومع ذلك أنت تعرفين، يا أختي، حبّي، شفتاك، أرنبة أذنيك، يا أختي لين، ليس في حياتي فتيات غيرك، ليس ثمّة سواك، أختي لين، منذ سنّي الطّفولة حين رأيتك، عاريةً، بلا نهدين، ولا فرج، لم أرَ غير فخذَيك، فيما عداهما كنتِ شبيهَتي. أختي لين، مرّت السّنون، وجنوني يتعاظم، أرغب في ضمّ فخذيك إليَّ، وجهك المرعوب، شفتاك المرتجفتان من البكاء المتواصل. لين، يا أختي لين. اليوم رأيت بين الثياب المتّسخة تبّانك، وعليه بقع دم، لقد صرتِ امرأةً، وعليَّ أن أبيعك، أختي، آه يا أختي لين!

- أخي لانوِّي، أهكذا تجري الأمور؟ أخي لانوِّي، لقد رحلتَ هذا المساء. أنا، بقيت هنا، وحدي مع الشّيخ، وكنت خائفةً لأنّك لم تكن هنا. في وقت متأخّرٍ، ناما، الشّيخ والعجوز، وأنت، يا أخي لانوِّي، لم تعد. انتظرتُ طويلاً أمام نافذتي، إلى حين عودتك مع رجلٍ آخَر. دخلتما الغرفة، أنت والرّجل الغريب، وفعلتُ أنا كلّ ما طلبتَه منّي. أنا امرأةٌ، يا أخي لانوِّي، أعرف ما أدين به لكما أنتَ والشّيخ، وأفعل ذلك

عن طيب خاطر، يا أخي لانوِّي، أقبلُ أن أمنحَ جسدي لأيّ كان. لكن خذ يدي بينما ينام الشّيخ والعجوز، وداعب شعري بينما يأخذني الآخرُ. أحِبَّني لانوّي، يا أخي، يا حبّي، أو اعقد حبلاً حولَ رقبتي.

سيّان

إلى الأعلى، إلى الأسفل، رؤوس زرقاء؟؟، أشواك.
أحدهم يغنّي شيئاً.
سيّانٌ، الغناء ليس حتّى جميلاً، هي أغنيةٌ حزينة، قديمة، قديمة.
- وغداً؟ ستستيقظ، وأين ستذهب؟
- لن أذهب إلى أيّ مكان. أو لربّما ذهبتُ إلى مكانٍ ما.
سيّانٌ، في جميع الأحول لا نكون بخير في أيّ مكانٍ.
لكنّ النّوم عَصيٌّ، ثمّة الأجراس التي ترنّ، ثمّة السّاعات.

- ابسط منديلك سيّدي، أريد أن أجثو على ركبتيَّ.
- تفضّل.
كانا اثنين في الترامواي. واحدٌ يقرع الجرسَ والآخرُ يشغل المقاعدَ.
لم يكن ثمّة أحد لينزل عند نهاية السير.
ومع ذلك كانت الترامواياتُ كلّها تتوقّف هناك.
لم يكن ثمّة أحدٌ لكي يصعد.
سيّان.
جثيا على ركبتيهما، وتبادلا الحديث.

- تريد أن تبادلني الحديث؟
- ظننتك تريد أن تصلّي.
- لقد صلّيت.
- أوه، الأمر مختلف. بوسعي إذن أن أمضي. سأتّصل بكَ غداً.
- ما الأخبار؟
- كيف حال الأولاد؟
- أشكرك. في الوقت الرّاهن، اثنان منهما فقط مريضان. الأكبر سنّاً يذهبون إلى المتاجر ليستدفئوا. وعندكم؟
- لا جديد. كلبنا صار نظيفاً. اشترينا أثاثاً بالتقسيط. ومن حين إلى آخر، يتساقط الثلج.

صندوق البريد

صندوق بريدي، سأفتحه مرّتين في اليوم. في ١١ صباحا و٥ مساءً. عموماً يمرّ ساعي البريد أبكر من ذلك، صباحاً ما بين ٩ و١١، هو شديد الانتظام، ومساءً حوالي ٤.

دائماً ما أتأخّر في فحصه ما أمكنني، حتّى أتأكّد من أنّ ساعي البريد قد مرّ، وإلاّ فإنّ الصندوق الفارغ قد يهبني أملاً كاذباً، إذ أقول: «ربّما لم يمرَّ بعد»، وأضطرّ لاحقاً إلى النّزول مرّة أخرى وفحص الصّندوق.

هل سبق لكم أن فتحتم صندوق بريدٍ فارغاً؟

لا شكّ في ذلك. هذا يحدث للجميع. لكنّكم لا تأبهون بالمرّة، سيّانٌ بالنّسبة لكم أن يكون الصندوق فارغاً أو يكون فيه شيء، رسالة من حماتكم، دعوة إلى افتتاح معرض، بطاقة من أحد أصدقائكم أثناء سفره.

أمّا أنا فليست لديّ حماةٌ، ولا يمكن أن تكون لي، ما دمت لست متزوّجاً.

ليس لي كذلك والدان أو إخوةٌ أو أخوات.

على العموم لا يمكن أن أعرف ذلك.

لقد وُلدتُ في مَيْتم. بالطّبع لم أولد هناك، لكن هناك وعيت بوجودي في العالم.

في البداية، بدا لي الأمر طبيعياً، كنت أحسب أنّ تلك هي الحياة: كمٌّ من الأطفال المتفاوتين في الأعمار، وفي القسوة، وبعض الرّاشدين لكي

يحموننا من بطش أكبرنا سنّاً. ما كنت أعرف أنّ ثمّة أطفالاً في مكانٍ آخرَ، يعيشون مع والدين، مع أبٍ، وأمّ، وأخواتٍ، وإخوة، مع ما يسمّى عائلة.

لاحقاً التقيت بهم، أولئك الأطفال الذين ينتمون إلى عالمٍ آخر، الأطفال الذي لديهم والدان وإخوةٌ وأخوات.

آنئذٍ بدأت أتخيّل والديَّ، بالتّأكيد لديَّ والدان، الأطفال لا ينبتون في الملفوف، لديَّ أيضاً إخوة وأخوات، أو على الأقل أخ أو أخت.

وضعت رجائي في صندوق الرّسائل.

أنتظر معجزة، رسالة من قبيل: «جاك، أخيراً عثرت عليك. أنا أخوك فرانسوا.»

بالطّبع كنت لأفضّل:

«جاك، أخيراً عثرت عليك. أنا أختك آنّا-ماريا.»

لكن لم يعثر عليّ لا جاك ولا آنا-ماريّا.

ولا أنا عثرت عليهما.

قد أقنع أيضاً برسالة من أمّي أو أبي. أتصوّر أنّهما مازالا على قيد الحياة، فأنا ما أزال شابّاً بما يكفي. فقط لو يكتب لي أحدهما.

من أمّي:

«عزيزي جاك، لقد علمت أنّك بأفضل حالٍ. أهنّئك على وصولك إلى ما وصلتَ إليه. أنا، مازلت كما كنت يوم ولدتُك،

غارقةً في الفقر والبؤس. لكنّي سعيدة لمعرفتي أنّك انتهيت إلى حياةِ رفاهٍ. إذا ما كنتُ قد تخلّيت عنك، ولم أعتنِ بك كما أردتُ، فإنّ السّبب في ذلك هو والدك الذي تخلّى في الوضع الصّعب الذي كنت فيه، رغم رغبتي الكبيرة في أن أضمّك إلى قلبي إلى الأبد.

أنا اليوم عجوز، وإذا ما كنت تستطيع أرجو أن ترسل لي بعض النّقود، لأنّي أمّك وأنا في بؤسٍ شديد بسبب سنّي، ولا أحد يرغب في تشغيلي. أمّك التي تحبّك، وتفكّر فيك كثيراً.»

من أبي:

«ولدي العزيز. لطالما تمنّيت أن يكون لديّ ابن، وأنا فخور بك، لأنّك بلغت وضعاً مهمّاً. لا أدري كيف وصلتَ إلى ما وصلتَ إليه، أمّا أنا فلم أحقّق شيئاً رغمَ أنّي عملت طيلة حياتي مثل محكومٍ بالأشغال الشّاقة.

عندماً أخبرتني أمّك أنّها حاملٌ بك، رحلتُ في مركب، عشت في الموانئ والحانات، وكنت شقياً لتفكيري في أنّ لي في مكانٍ ما امرأةً وطفلاً، لكن ما كان بوسعي أن أبقى معكما، بسبب المال القليل الذي كنت أكسبه وأنفقه في الشرب كي أنسى الهمّ الذي يتغلغل فيّ كلّما فكّرت فيكما. واليوم أوهنني الشّراب والهموم، وما عادوا يقبلونني على المراكب. أشتغل ما وسعني على الموانئ، لكن لا أكسب إلاّ قليلاً، أنا مسنٌّ. إذا ما كنت تستطيع إذن، نظراً لظروفي، أن ترسل لي بعض النّقود، سأكون ممتنّاً. والدك الحنون الحياةَ بأكملها»

تلك هي نماذج الرّسائل التي كنت أنتظرها. وبأيّ فرحٍ كنت سأهرع لمساعدتهما وتلبية ندائهما.

لكن لا شيء، لا شيء من ذلك في صندوق رسائلي، لا شيء، حتّى هذا الصّباح.

وصلتني رسالةٌ هذا الصّباح. رسالةٌ من أحد أهمّ المقاولين بالمدينة. اسمٌ معروف جداً. ظننتها رسالةً رسميّة. رسالة عمل. أنا مصمم ديكور.

كانت الرّسالة تبدأ على هكذا:

«ولدي،

أنت كنت مجرّد خطإٍ ارتكبتُه في شبابي.

لكنّي تحمّلت مسؤوليّتي. لقد وهبتُ أمّك وضعاً مريحاً، وكانت تستطيع أن تربّيك دون حاجة إلى أن تعملَ، لكنّها استغّلت النّقود، ووضعَتك في الميتم كي تواصل حياة غير مستقيمة. (علمتُ أنّها ماتت منذ حوالي عشر سنين).

أمّا أنا، فبسبب وضعي الحسّاس، لم أستطع الاعتناءَ بك على نحوٍ مباشر، فقد كانت لديّ أسرةٌ شرعيّة.

لكنّي أريدك أن تعلمَ أنّي لم أنساك قطّ، وأنّي اعتنيت بك دائماً، عبر طُرقٍ ملتوية. (مصاريف دراستك، ومنحة الفنون الجميلة، أنا من تكلّفت بها)

وعليّ الاعتراف أنّك من جانبك أحسنت التّصرّف، وأهنّئك على ذلك. لابد أنّك ورثت ذلك عنّي، فأنا أيضاً انطلقت مثلك من لاشيء.

للأسف، لم أُنجب ولداً غيرك. ليس لديّ سوى البنات، وأحفادي فاشلون.

واليوم قد بغتُ مغربَ حياتي، وبغض النّظر عن القواعد،

قرّرت أن أفوّض إليك إدارة أعمالي، لأنّي متعبٌ وأصبو إلى الرّاحة.

أرجو منك إذن أن توافيني في مكتبي، بالعنوان المذكور أعلاه، في الثاني من مايو/أيار المقبل، على الساعة الثالثة بعد الظّهر.

والدك»

والرّسالة مشفوعة بتوقيع.

هي ذي الرّسالة التي وصلتني من والدي بعد ثلاثين سنة من الانتظار.

وهو على يقين من أنّي سأوافيه في مكتبه في الثاني من مايو/أيار المقبل، على الساعة الثالثة بعد الظّهر، مغموراً بالفرح.

الثاني من مايو/أيار، يعني بعد عشرة أيّام.

وهذا المساء أنا جالس في مطارٍ، أنتظر طائرةً إلى الهند.

لمَ الهند؟

قد يكون أيّ مكانٍ آخر، المهم أن لا يعثر عليّ «والدي».

الأرقام الخاطئة

لا أدري ما الذي يحصل مع رقم هاتفي، هنا. لا ريب في أنّه يتشابه مع أرقامٍ أخرى كثيرة. أنا لا أتذمّر. فكلّ اتّصال، هو مناسبة للخلاص من وجودي الرّتيب. منذ أن صرت عاطلاً عن العمل، بدأ يصيبني بعض الملل أحياناً. لا يحدث ذلك دائماً، ولا أمّل حقاً. الأيّام تمرّ بسرعة مذهلة. حتّى أنّي أتساءل أحياناً كيف أمكن تخصيص ثماني ساعاتٍ للعمل في يومٍ هو أصلاً قصيرٌ جداً.

بالمقابل، إنّ اللّيالي طويلة وصامتة. لهذا أسعد حين يرنّ الهاتف. رغم أنّه في الغالب، بل تقريباً دائماً، يكون المتّصل مخطئاً في الرّقم.

النّاس يتيهون كثيراً. يتّصلون بي ويسألون:

- جراج لانثمان؟

فأجيب منزعجاً:

- كلاّ، شكراً (أريد التّخلّص من عادة قول «شكراً» التي تستحوذ على كلّ كلامي)، لقد أخطأتم الرّقمَ.

يجيب الرّجل عند الطّرف الآخر من الخطّ:

- هذا سخيف، سيارتي معطّلة على الطّريق السيّار ما بين سيريير وأروز.

أقول له:

- آسف لا أستطيع مساعدتك.

يفقد أعصابه:

- هل هذا جراج لانثمان، أم ماذا؟

- آسف لأنّي لستُ جراج لانثمان، لكن إذا ما كان بوسعي مساعدتك...

أحاول دوماً أن أكون طيّباً في الهاتف حتّى حين لا يكون الأمر مجدياً. لا أحد يدري. بالإمكان أن نكسب أحياناً علاقات، أصدقاء.

- أجل تستطيع مساعدتي، بإمكانك أن تحمل لي صفيحة بنزين.

صوته مفعم بالأمل، يحسب أنّه وقع على أبله، وهو غير مخطئ في ذلك.

- آسف سيّدي، ليس لديّ بنزين، لديَّ فقط بعض كحول الإحراق.

- احرقه إذن، أيّها الأحمق!

يقفل الخطّ.

هي دوماً هكذا، الأرقامُ الخاطئة، ما دمتَ لا تملك ما تريدُه، فإنّها لا تعيرك اهتماماً. كان من الممكن أن ندردش قليلاً.

أتذكّر أجمل رقم خاطئ اتّصل بي. كنت قد تركت الهاتف يرنّ طويلاً. كنت أمرّ بفترة تشاؤم. كان الاتّصال من امرأة، حوالي العاشرة مساءً.

أجبت بصوتي السيِّم المتخم بالقلق.

- ألو؟

- مارسيل؟

أجبتها بحذر:

- نعم ؟

- آه يا مارسيل، أبديّةٌ بأكملها وأنا أبحث عنك.

- وأنا أيضاً.

كنت صادقاً، منذ الأزل وأنا أبحث عنها.

- أنت أيضاً؟ ذاك ما كنت أظنّ. هل تذكر، على ضفاف البحيرة؟

- كلاّ، لا أذكر.

أجبتها كذلك لأنّ في جوهري صادق، لا أحبّ الخداع.

- ألا تذكر؟ هل أنت ثمل؟

- واردٌ، فأنا كثيراً ما أثمل. لكنّي لا أُدعى مارسيل.

أجابتني:

- طبعاً، ولا أنا أسمّى فلورانس.

حسناً، هذه أصلاً حصيلة لا بأس بها، لقد صرت أعرف كيف لا تُسمَّى. وكنت على وشك أن أقطع الاتّصال، فإذا بها تقول بغتة:

- بلى، أنت لست مارسيل، لكنّ لك صوتاً جميلاً.

صمتُّ، فأردفَت:

- صوت رائع، عميق وعذب. أرغب حقاً في أن أراك، أن ألتقي بك.

ظللتُ صامتاً.

- أنت هنا؟ لمَ لا تكلّمني؟ أعرف أنّني أخطأت الرّقم، أنّك لست مارسيل، أقصد، أنّك لستَ ذاك الذي أخبرني أنّ اسمه مارسيل.

استمرّ الصّمت. خاصّة من جانبي.

- أنت هنا؟ ما اسمك؟ أنا اسمي غارانس.

سألتها:

- ليسَ فلورانس؟

- كلاّ، غارانس، وأنت؟

- أنا؟ لوسيان. (لم يكن صحيحاً، لكنّي أحسب أنّ غارانس أيضاً ليس اسماً صحيحاً)

- لوسيان؟ اسم جميل. ما رأيك في أن نلتقي؟

لم أُجب. العرق يسيل من جبيني في عينيَّ.

أضافت غارانس:

- سيكون أمراً طريفاً، ألا ترى ذلك؟

- لا أدري؟

- آمل أن لا تكون متزوّجاً؟

- كلاّ، متزوّج، كلاّ. (أنا أتزوّج، يا لها من فكرة!)

- وإذن؟

أجبتُها:

- نعم.

- نعم، ماذا؟

- يمكن أن نلتقي، إذا شئتِ.

ضحكت:

- أنتَ تبدو من النّوع الخجول، على ما أعتقد. أعشق الرّجال الخجولين. (. . . .) اسمع، سأقترح عليك أمراً. سأكون غدا بعد الظّهيرة، ما بين الرّابعة والخامسة في مقهى المسرح. غدا، السّبت، وأفترض أنّك لا تعمل السّبت.

افتراضها صحيح. لا أعمل السّبت، ولا باقي أيّام الأسبوع.

- سأرتدي -واصلَت الكلامَ- لنرى، سأرتدي تنّورةً اسكتلنديّة، مع قميصٍ رماديّ وسترةٍ سوداء. ستتعرّف عليّ بسهولة. أنا سمراء، وشعري نصف طويل. انتظر. (ما كنت أفعل غير الانتظار). سأحمل معي كتاباً غلافه أحمر، وسأضعه أمامي على الطّاولة. وأنت؟

- أنا؟

- نعم، كيف لي أن أعرفك؟ هل أنت طويل، قصير، نحيل، يمين؟

- أنا؟ كما تشائين. أنا بالأحرى متوسّط القامة، ولست نحيفاً ولا سميناً.

- ألَدَيك شاربٌ أو لحية؟

- لا، لا شارب ولا لحية. أحلق كلّ صباحٍ، بسخافةٍ. (في الحقيقة أحلق مرّة كلّ ثلاثة أيّامٍ أو أربعة، على حسب)

- ترتدي سراويل جينز؟

- طبعاً. (ليس صحيحاً، لكنّي أحسب أنّها تحب ذلك)

- وسترة سوداء كبيرة، على ما أظنّ.

- نعم، سوداء، أغلب الأوقات (أجبتها مجاملا).

- حسنا، شعرك قصير.

- نعم قصير، لكن ليس كثيراً.

- أشقر أم أسمر؟

بدأت تزعجني. أنا أسمر-رماديّ، غير صافٍ، لكن لا أستطيع الاعتراف بذلك.

- كستنائي.

ماذا لو لم يرُقها ذلك، لا فرقَ. بعد إمعان تفكيرٍ، أفضّل صاحب السيّارة المعطّلة.

قالت:

- وصفك مبهم، لكنّي سأتعرّف عليك. ماذا لو تأبّطت صحيفةً؟

- أيّ صحيفة؟ (إنّها تبالغ. أنا لا أقرأ الصحف بالمرّة)

- لنَقُل، لونوفيل أوبسرفاتور. (لا أدري ما هذا، لكنّي سأعثر عليه)

قالت:

- إلى الغد إذن يا لوسيان، (وأضافت قبل أن تقطع الاتّصال) أجد الأمر مشوّقاً.

مشوّق! هناك من النّاس من ينطقون الكلمات بسهولة بالغة. أنا، لن أستطيع البتّة أن أتحدّث كذلك. ثمّة العديد من الكلمات التي لا أستطيع أبداً أن أنطقها. مثال: «مشوّق»، «مثير»، «شاعريّ»، «روح»، «معاناة»، «وحدة»، إلخ. ببساطة، لا أستطيع نطقها. أخجل، كأنّما هي كلمات داعرةٌ، كلمة عيب، مثل «خراء»، «قذارة»، «مقرف»، «تبّاً».

صباح اليوم الموالي، اشتريت سروال جينز وسترة سوداء كبيرة. يقول البائع إنّها تناسبني جداً، لكنّي لم أعتَدْها. قصدت

الحلاّق أيضاً اقترح عليَّ شامبو ملوّن. صبغت شعري بالكستنائي الغامق، لكن ما يكون. إن لم تنجح الصّبغة، لن أذهب. ولكنّها نجحت. صار شعري كستنائيّاً جميلاً، فقط لم أعتد عليه.

عدت إلى البيت، نظرت في المرآة. الساعات تمضي وأنا أنظر في المرآة. والآخر، المجهول، ينظر إليّ أيضاً. لا يروقني. إنّه أفضل منّي، أجمل، أكثر شباباً، لكنّه ليس أنا. أنا كنت أقلّ منه جمالاً وشباباً، لكنّي كنت معتادا على نفسي.

الرّابعة إلا عشر دقائق. عليّ الذهاب. غيّرت ملابسي بسرعة، ارتديت بذلتي الكحليّة المخمليّة، البالية، ولم أشترِ جريدة لونوفيل أوبسرفاتور، ووصلت مقهى المسرح على الرابعة والرّبع.

جلست، وأخذت أنظر.

أتى النّادل، فطلبت منه كأس نبيذ أحمر.

واصلتُ النّظر. رأيت أربع رجال يلعبون الورق، وزوجاً ضجران يحدّقان في الفراغ، وعلى طاولة أخرى، امرأة وحيدة بتنّورة مطويةً، تبدو رماديّة، وقميص رماديّ فاتح، وسترة سوداء. كما ترتدي عقداً ثلاثياً من فضّة. (لم تحدّثني عن العقد.) أمامها فنجان قهوة وكتاب غلافه أحمر.

يتعذّر عليّ تحديد عمرها، بسبب المسافة الفاصلة بيننا، لكنّي حزرت مع ذلك أنّها جميلة، فائقة الجمال، جميلة بقدر لا أستحقه.

لاحظت أيضاً أنّ لها عينين حزينتَين، يسكن عمقهما نوع من الوحدة، رغبت في أن أذهب للقائها، لكنّي لا أستطيع ما دمتُ قد ارتديت ملابسي المخملية البالية. ذهبت إلى دورة المياه،

وألقيت نظرة على المرآة فشعرت بالخجل لمنظر شعري الكستنائي. خجلت أيضاً من هذا الاندفاع الذي يحركني تجاهها، تجاه «عينيها الحزينتَين، اللتين يسكن عمقهما نوع من الوحدة»، والذي ليس سوى نزوة بليدة توحي بها مخيّلتي.

عدت إلى الصالة، وجلست إلى طاولة قريبة جداً منها، كي أستطيع مراقبتها.

لم تكن تنظر إليّ. كانت تنتظر شاباً يرتدي سروال جينز وسترة سوداء كبيرة، ويتأبّط جريدة.

تراقب السّاعة على بندول المقهى.

لم أستطع التوقّف عن التحديق بها، ممّا سبب لها الإزعاج، على ما يبدو، إذ نادت النادل ودفعت الحساب.

في تلك اللّحظة فُتح الباب، أو بالأحرى دُفع مصراعا الباب مثلما يحدث في أفلام الويستيرن، ودخل رجلٌ أصغر منّي سنّاً، وتوقّف عند طاولة فلورانس-غراس. كان يرتدي سروال جينز وسترة سوداء، كدت أدهش لكونه لا يحمل مسدّسا ولا يضع على حذائه مهمازاً. كان شعره أسود ينسدل حتّى كتفيه، ولديه لحيةٌ جميلة من نفس لون شعره، وانتظرت طبعاً ما سيقولانه:

- مارسيل!

أجابها:

- لمَ لم تتّصلي بي؟

- اسمع، ثمّة رقم من أرقام هاتفك أخطأت قراءَته.

- تنتظرين أحداً؟

- كلاّ، لا أنتظر أحداً.

مع أنّي موجود، أنا هنا، وهي تنتظرني، لكن لحسن الحظ وحدي أعلم ذلك، ولا خشية من أن أقصدهما وأحكي ما وقع. خاصّة وأنّ مارسيل قال:

- إذن، هل نذهب؟

- نعم.

نهضَت، وانصرفا.

البادية

صار الأمر لا يطاق.

تحت النّوافذ المفتوحة على ساحة صغيرة، كانت فيما مضى جميلةً، لا يتوقّف البتّة ضجيج السيّارات وهدير المحرّكات.

حتّى ليلاً، يستحيل النّوم بنوافذ مفتوحة.

كلاّ، لم يعد الأمر مقبولاً.

الأطفال قد يُدهسون إن خرجوا من المنزل. ما عدنا نرتاح ولا دقيقة.

بمعجزةٍ، عُرضت عليه هذه المزرعة المعزولة، التي تركها مالكها، والتي لم تكن تكلّف سوى حفنة من مال. كان عليه بالطّبع أن يقوم ببعض الإصلاحات. السّقف، والصباغة. وأن يبنيَ حماماً. لكن حتّى مع تلك التكاليف كان وضعه على ما يرام.

و، على الأقلّ، كان في بيته. كان يشتري الحليب والبيض والخضر من المزارع جارِه بنصف الثمن الذي يشتري به تلك السّلع من المتاجر الكبرى في المدينة. دون أن نغفل أنّه، هنا، يشتري بضائع سليمة طبيعيّة.

مشكلته الوحيدة، كانت هي المسافات التي عليه قطعها -

عشرون كيلومتراً- أربع مرّاتٍ في اليوم. لكن، وإنْ، عشرون كيلومتراً ما هي سوى ربع ساعة.

(ما عدا حين يكون ثمّة ازدحامٌ مروري، أو حوادث، أو عطب، ومراقبة شرطة، أو ضباب، أو جليد، أو ثلج شديد.)

المدرسة أيضاً كانت بعيدة، لكنّ نصف ساعةٍ من المشيِ، مفيدٌ جداً للأطفال.

(ما عدا حين تُمطر السّماء، أو تثلج، أو يشتدّ البرد أو الحرّ.)

لكن، في حقيقة الأمر، كانت الجنّة.

وكان يضحك كثيراً حين يصل المدينة، ويركن سيارته في السّاحة الصغيرة، أحياناً كثيرةً تحت النوافذ التي كانت نوافذه فيما مضى. وحين يستنشق غاز العوادم، ويفكّر برضا في أنّه قد جنّب أسرته كلّ ذلك.

ثمّ، أتى هذا المشروع، مشروع الطّريق السيّار.

حين تفحّص الخريطة المعروضة في فندق المدينة، انتبه إلى أنّ الطّريق المستقبليّة، ذات الممرّات الستّة، ستمرّ من وسط مزرعته، أو ليس بعيداً منها. اهتاج بشدّة، لكن ما هي سوى لحظةٍ حتّى أتاه ما يشبه الوحيَ: إذا ما مرّت الطّريق السيّار عبر مزرعته أو حديقته، سيحصل على تعويض. وبمال التّعويض سيتمكّن من شراء مزرعة أخرى، في مكانٍ آخر.

وحتّى يطمئنّ قلبه، طلب مقابلة المسؤول.

واستقبله المسؤول بودٍّ. وبعدما أصغى إليه بلباقةٍ، شرح له بأنّه قد أخطأ التقدير حين قرأ الخرائط، فالطّريق السيّار ستمرّ

على بعد مائة وخمسين متراً، على الأقلّ، من مزرعته. لذا لا مجال لأن يحصل على تعويض.

شيدت الطّريق السيّار -وكانت إنجازاً رائعاً- وكانت ثمّة بالفعل مسافة مائة وخمسين متر بينها وبين المزرعة، حتّى أنّ الضّجيج كان بالكاد يُسمع، لدرجة أنّه يصير مجرّد طنين متواصل سرعان ما يُؤلَف. وسلّى مالك المزرعة نفسه بالقول إنّ هذه الطّريق السيّار ستمكّنه من الوصول سريعاً إلى مقرّ عمله.

لكن حرصاً منه، ما عاد يشتري الحليب من جاره، لأنّ البقرات تأكل العشب النابت على جنبات الطّريق، ومن المعروف أنّ هذا العشب يكون مشبعاً بالرّصاص.

بعد ستّة أشهر أقيمت خزّانات غازٍ على بعد خمسين متراً من مزرعته.

بعد سنتين، أُقيم مصنع لتدوير النّفايات المنزلية، على بعد ثمانين متراً. كانت الشّاحنات ذات الحمولة الثقيلة تأتي صباح مساء، ومدخنة المصنع تطلق دخانها بلا انقطاع.

بالمقابل، في المدينة، مُنعت قيادة السيّارات وركنها بالسّاحة الصّغيرة، التي جُعِلَت ميداناً صغيراً بأرضيّاتٍ مُزهرة، وشجيراتٍ، ومقاعد للجلوس، وباحةٍ مخصّصة للأطفال.

الأزقّة

مُذ كان طفلاً وهو يحبّ التّجول في الأزقّة.

في أزقّة هذه المدينة الصّغيرة التي لا مستقبل لها.

كان يسكن وسط المدينة، في منزل ضيّق بطابق واحد. وفي الطّابق السفليّ كان يوجد متجر والِدَيه، وهو عبارةٌ عن بازار مليء بالأشياء الغريبة المتفاوتة القِدم.

وفي الطّابق، كانت النوافذ تنفتح على ساحة المدينة الرئيسة، ساحةٌ تصير خلاءً منذ التّاسعة مساءً.

بعد المدرسة، لم يكن يعود مباشرة، كان يذهب للنّزهة.

كان يطيل التّأمّل في بعض الواجهات، ويجلس على مقعد، أو حائطٍ قصير.

وإذ كانَ تلميذاً نجيباً، ما كانَ والداه يقلقان عليه. كان دقيقاً فيما يخصّ ساعات الوجبات، ومساءً كان يعزف على البيانو غير المُدَوزن الموجود في غرفته. كان البيانو بضاعةً لم ينجح والداه قطّ في بيعها، لأنّ قلةٌ في المدينة هُم النّاس الذين بإمكانهم اقتناء بيانو، وأولئك الذين يملكون الإمكانات يشترون بيانو جديداً.

هو كان يعزف على البيانو القديم كلّ مساء.

وفي ما تبقّى من أوقات، كان يتجوّل في المدينة. وكانت

مدينة صغيرة، ومع ذلك كان بوسعه أن يكتشف كلّ يوم زقاقاً لم يسبق له أن رآه، أو بالأحرى لم يسبق له أن أمعن فيه النَّظر.

في بداية الأمر، كان يكتفي بالأزقّة العتيقة، قريباً من مسكنه. حسْبُه المنازل القديمة، القلعة، الكنائس، الأزقّة الملتوية.

وحين بلغ الثانية عشرة من عمره، صار يتوغّل أبعد فأبعد.

يتوقّف عند زقاقٍ ذي مظهر قرويّ، وقد أثارته المنازل المنغرسة في الأرض، والنوافذ الواطئة.

كانت أجواء الأزقّة هي ما يجذبه.

زقاقٌ مهمّش قد يجذب اهتمامه طيلة شهور. يعود إليه في الخريف، يريد أن يرى كيف سيبدو حين يغطّيه الثلج، ويرغب في أن يعرف كيف تبدو البيوت من الدّاخل. فكان يستغلّ الستائر غير المسدلة، والمصاريع غير المحكمة الإغلاق. صار متلصّصاً. متلصّصاً على المنازل. ما كان يهمّه النّاس الذين يسكنون تلك المنازل، وإنّما تهمه فقط المنازل والأزقة.

الأزقّة!

كان يرغب في أن يراها صباحاً تحت الشّمس، وأن يعيد رؤيتَها بعد الزّوال في الظّل، وحين تمطر السّماء، أو ينزل الضّباب، أو يكتمل القمر.

أحياناً كان يفكّر بحزنٍ في أنّ حياةً واحدةً لن تكفيه في معرفة كلّ أزقّة مدينته في مختلف الأبعاد التي يمكن أن تتّخذها. إذّاك كان يمشي حدّ الإنهاك، ويتملّكه الانطباع بأنّه لن يستطيع أبداً التوقّف.

على أنّه، اضطُرَّ ذات يومٍ إلى ترك تلك المدينة ليتعلّم دروساً

في الموسيقى بعاصمة البلاد. قايض بيانوه القديم بكمانٍ. رأى فيه أساتذته ملامح النّبوغ.

درس ثلاث سنواتٍ في المدينة الكبيرة.

ثلاث سنواتٍ من الكوابيس.

أحلامٌ، أحلامٌ، كلّ ليلة.

أزقّة، منازل، أبواب، جدران، أرصفة، ألمٌ حادّ، الاستيقاظ متعرّقاً في كبد اللّيل، دوزَنَةُ الكمان، الخوف من إزعاج سكّان المنزل، ترقّب السّاعة التي يكون بمقدوره أن يعزف فيها.

في ذلك اليوم الذي عزف فيه المقطوعة التي ألّفها، أمام أستاذه، وأمام التلاميذ، أغمض عينيه. في كمانه كانت تمرّ أزقّة مدينته، مع وقفاتٍ أمام منزلٍ جميلٍ، أمام روعة زقاقٍ لا يمكن نسيانه.

تأجُّج الوحشة لذكرى تلك الأزقّة المهجورة، المغدورة.

الحنين، الإعجابُ اللامحدود الذي يمحضه تلكَ الأزقّة المحبوبة، إحساسٌ فظيع بالذّنب، حبّ بلغ قمّة الشّغف. حبٌّ عنيد، راسخٌ، ملتصقٌ بأرض تلك المدينة، حبٌّ حسيٌّ، ماديّ، يكاد يكون فاحشاً، يجتاح قاعة الموسيقى.

ثورة جسدٍ لا يجد الرّاحة في مكانٍ آخر، ثورة القدمين اللتين لا تستطيعان المشي في مكانٍ آخر، تمرّد العينين اللتين لا تريدان رؤية شيء آخر. روحٌ معلّقة بجدران تلك المدينة المتفرّدة، العيون المعلّقة بواجهات منازل تلك المدينة المتفرّدة.

كان على يقين: لن يشفَ أبداً من هذا الحبّ اللامعقول، المضاد للطّبيعة، أبداً!

صاح الأستاذ:

- اصمتوا!

رفعَ عينيه المرتجفتين من الدّموع. لم يكن يدري ما يحدث في القاعة. وما كان يهمّه ذلك. أنزل قوس عزفه.

سألهم الأستاذ:

- لمَ تضحكون؟

أجابه تلميذ نجيب:

- اعذرنا يا أستاذ، لكن أيّ «ميلودراما» هي!

بدأ باقي التلاميذ يتحرّرون في الضّحك، بعدما انعتقوا من الكابوس.

سحبه الأستاذ إلى غرفةٍ أخرى، وقال له:

- اعزف!

- لا أستطيع. لمَ كانوا يضحكون؟

- بباعثٍ من حيرتهم. ما كان بوسعهم تحمّل موسيقاك... وجعك. هل أنت واقع في الحبّ؟

- لا أفهم.

- لم تعد الأحاسيس مقبولة في الفنّ، في زمننا هذا. الموضة السّائدة تنزع إلى الجفاف الذي يكاد يوازي العلم. أما الرّومانسية، فلست أدري حقاً، كلّ شيء عفت عنه الموضة، كلّ شيء صار مضحكاً. حتّى الحبّ. مع أنّ الحبّ في سنّك ضروريّ، طبيعي. لابد أنّك مغرم بامرأة.

من ذهوله انتابه ضحكٌ طويلٌ.

قال الأستاذ:

- إنّك تحتاج للرّاحة. أنت موسيقيّ عظيم، وقد صار

بوسعك الآن أن تتعلّم بمفردك. بإمكانك أن تجد سبيلك الشخصيّة. لكن ارتَح أوّلاً.

عاد إلى مدينته كي يرتاح من غيبةٍ طويلة.

أراح كمانه أيضاً. وأحيانا كان يعزف على بيانوه القديم غير المدوزن. وكان يعطي دروساً في الموسيقى لكي يكسب عيشه. وكان راضياً. ينتقل من تلميذ إلى آخر، من منزل إلى آخر، من زقاق إلى آخر.

والداه توفيا. الأب أوّلاً ثمّ الأمّ. وما عاد يذكر بالتّحديد متى حدث ذلك.

يمشي في الأزقّة.

أحياناً يجلس على مقعدٍ حاملاً جريدة. لكنّه لم يكن يقرأ. لم يكن يأبه لما يجري في العالم. ولا يأبه حتّى لما يجري في مدينته.

كان يجلس هناك فحسب، كان سعيداً.

كانت السّعادة في عرفه تتلخّص في أشياء بسيطة: أن يتجوّل في الأزقّة، أن يمشي في الأزقّة، أن يجلس حين ينال منه التّعب.

حتّى في أحلامه، كان يسير في الأزقّة، وهناك كان سعيداً حقّاً، لأنّه كان يستطيع أن يجوب كلّ الأزقّة دون أن يتعب، كانت قوّته لا تنضب.

ذات مساءٍ، أحسّ نفسه شاخَ كثيراً، وخطر بباله هاجسٌ مخيفٌ، هاجس أنّه لن يملك البتّة ما يكفي من الوقت لكي يرى مرّةً أخرى هذا المنزل أو ذاك الزّقاق. وفكّر بحزنٍ في أنّه سيضطرّ بعد موته إلى العودة كي يمشي ويمشي في الأزقّة.

لكنّ ذلك يزعجه كثيراً، لأنّه يفترض أنّ الأطفال سيخافون منه، وهو لا يريد بأيّ حالٍ من الأحوال أن يسبب الخوف للأطفال.

ثمّ مات، ومثلما ظنّ، اضطرّ سنواتٍ طويلة -إلى الأبد- إلى أن يعود ويسكن الأزقّة التي لم يكن قد أحبّها بعد، على ما يعتقد، بما يكفي.

أمّا فيما يخصّ الأطفال، فقد كان همّه مجاناً، لأنّ عيونهم كانت تنظر إليه باعتباره شيخاً مثل غيره من الشّيوخ، وبالنّسبة لهم لم يكن ثمّة فرقٌ بين أن يكون ميتاً أو حيّاً.

عجلة الحظّ الكبرى

ثمّةُ شخصٌ لم تتملّكني بعدُ الرّغبةُ في قتله.

إنّه أنتَ.

بمقدوركَ أن تمشي في الطرقات، بمقدورك أن تشربَ وتمشي في الطرقات، لن أقتلك.

لا تخَفْ. لا خطر في المدينة. الخطرُ الوحيد في المدينة هو أنا.

أمشي، أمشي في الطرقات، وأقتلُ.

لكن أنتَ، لا خوف عليك.

إذا ما كنتُ ألاحقك، فلأنّي أعشق إيقاع خطواتك. أنت تتهادى. هذا جميل. قد يخيّلُ للمرء أنّك تعرج. وأنّك أحدب. لكنّك لست كذلك حقاً. من حين لآخر تنتصبُ قامتُك وتمشي مستقيمَ الخطو. غيرَ أنّي أعشقُك في الساعات المتأخّرة من الليل، حين تكون خائرَ القوى، حينَ تمشي متعثّرَ الخُطى مقوّسَ الظهر.

أتبَعُكَ، أنت ترتعدُ. برداً أو خوفاً. مع أنّ الجوّ حارٌ.

لم يكن جوّ مدينتنا قطّ بهذا الحرّ، لم يكن تقريباً قطّ بهذا الحرّ، لعلّه لم يكن قطّ بهذا الحرّ.

مَمَ خوفُكَ إذن؟
منّي؟
أنا لستُ عدوّك. أنا أحبّك.
ولن يستطيع أحد آخر إيذاءكَ.
لا تخف. أنا هنا. أنا أحميك.
مع أنّي أنا أيضاً أتألّم.

دموعي -قطراتُ المطر الكبيرة- تسيلُ على وجهي. اللّيلُ يحجبني. القمر يضيئني. الغيوم تخفيني. الرّيح تمزّقني. أمحَضُك نوعاً من العطف. ذاك أمر يعرضُ لي. لكنّه نادرُ الحدوث.

لِمَ أنتَ؟ لستُ أدري.
أريد أن أتبعك بعيداً، أينما ذهبتَ، أتبعك زمناً طويلاً.
أريد أن أراك تتألّم أكثرَ.
أريدك أن تملّ كلّ ما سوايَ.
أريدك أن تأتي وتتوسّلني لآخذك.
أريدك أن تشتهيني. أن ترغب فيّ، أن تحبّني، وتناديني.

آنذاك سأحضنك، سأضمّك إلى قلبي، وستكون طفلي، عشيقي، حبّي.

سأحملك معي.
كنتَ تخشى أن تولد، والآن تخشى الموتَ.
تخشى كلّ شيء.
لا ينبغي أن تخاف.
ما هيَ إلاّ عجلةٌ كبيرةٌ تدورُ. عجَلةٌ تنادي الخلودَ.

أنا من يلُفُّ العجَلةَ الكبرى.

لا ينبغي أن تخاف منّي.

الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخيفَ، ويسبّبَ الألم، هوَ الحياةُ. والحياةُ أنت أصلاً تعرفُها.

اللّص

أحكِموا غلق أبوابكم. آتي دون ضجيج. يدايَ مقفّزتان بالسّواد.

لست من النّوع العنيف. ولا من النّوع الجشع الأرعن.

إذا ما عرضَت لكم الفرصةُ، تستطيعونَ أن تتأمّلوا على صدغيَّ ومعصميّ رسمَ العروق الدّقيقَ.

لكنّي لا أدخل غرفكم إلاّ في وقت متأخّرٍ، حين يغادرُ آخرُ الضيوف، حينَ تنطفئ مصابيحكم المقيتة، حينَ يغطّ الجميع في النّوم.

أحكِموا غلق أبوابكم. آتي دون ضجيج. يدايَ مقفّزتان بالسّواد.

لا تدوم زيارتي أكثرَ من لحظات معدودة، لكنّي لا أخلفُ موعدي، آتي كلّ مساء ولا أستثني بيتاً.

لست من النّوع العنيف. ولا من النّوع الجشع الأرعن.

صباحاً، حين تستيقظون، أحصوا أموالكم، وتفقّدوا مجوهراتكم، لن تجدوا شيئاً ناقصاً.

لا شيء سوى يومٍ من أيّام حياتكم.

الأمّ

تركَ ابنها البيت مبكّراً، ما إن بلغ الثامنة عشرة. أشهراً بعد وفاة والده.

ظلّت تعيش في الشقّة المؤلّفة من غرفتَين، وكانت علاقتها بجيرانها جيّدة جداً. كانت تمتهن الأشغالَ المنزلية والإصلاحات وكيَّ الملابس.

وذات يومٍ دقّ ابنها البابَ. ولم يكن وحده. كانت برفقته شابّةٌ، لا بأسٍ بجمالها.

استقبلتهما بذراعَين مفتوحَتَين.

فهيَ لم ترَ ولدَها منذ سنواتٍ أربع.

بعد وجبة العشاء، قال ولدُها:

- أمّي، إذا ما طاب لك الأمر، يمكن أن نبقى هنا معا.

دقّ قلبها طرباً. أعدّت لهما أكبر الغرفتَين وأجملهما. لكنّهما خرجا حوالي العاشرة.

قالت لنفسها «لابدّ أنّهما قد ذهبا إلى السينما»، ثمّ نامت سعيدة في الغرفة الصغيرة خلفَ المطبخ.

لم تعد وحيدة. فقد عاد ابنها للعيش بقربها.

صباحاً، ذهبت للقيام بالأشغال المنزليّة والأعمال البسيطة التي لم ترغب في تركها بسبب الوضع الذي جدَّ.

زوالاً، أعدّت لهما وجبةً طيّبة. كان ابنها يعود دائماً حاملاً شيئاً. وروداً، تحْليَة، نبيذاً، وأحياناً شامبانيا.

كثرة الغرباء الذين تصادفهم في بهو بيتها ما كانت تزعجها. كانت تقول لهم:

- تفضّلوا، تفضّلوا، إنّ الشّبابَ في غرفتهما.

وأحياناً حين يكون ابنها غائباً، وتتناول المرأتان العشاء وحدهما، كانت عيناها تلتقيان بالعينين الحزينتين المنكسرتين، عينَي الفتاة التي تسكن في بيتها. إذّاك تخفض عينيها، وتقول وهي تداعب كرةً من عجين الخبز:

- إنّه ولدٌ طيّب. ولدٌ لطيف.

فتطوي الفتاة منديلها -إذ كانت حسنة التربية- وتغادر المطبخ.

الدّعوة

مساء الجمعة، يعودُ الزّوج من مكتبه رائقَ المزاج.

- غداً عيد ميلادك يا حبيبتي. سنقيم حفلاً كبيراً، ونستدعي الأصدقاءَ. أمّا هديّتك فأهديها لك نهايةَ الشّهر، فأنا أعاني ضيقاً ماليّاً هذه الأيام. ما الذي تفضّلينه؟ ساعةً-إسورة؟

- عندي أصلاً ساعةٌ، حبيبي. أنا جدّ سعيدة.

- فستانٌ إذن؟ طقمٌ من «الخياطة الرّفيعة»؟

- من «الخياطة الرّفيعة»! كلّ ما أريده سروالٌ ونعل، وفقط.

- كما تشائين. سأعطيك النّقود، واختاري ما يعجبك. لكن فقط انتظري نهاية الشّهر. بالمقابل، بإمكاننا إقامة الحفل غداً، مع العديد من الأصدقاء.

قالت المرأة:

- أوَ تدري، إنّ الحفلات التي يحضرها الكثير من الأصدقاء متعبةٌ بالنّسبة لي. أفضّل بالأحرى عشاءً في مطعم جيّد.

- المطاعم أسعارها نار، وليس مؤكّداً أن تكون جيّدة. أفضّل أن أمنحك عشاءً في بيتِنا. سأتكلّف بكلّ شيء، بالتبضّع، بالطّعام، وبالدّعوات. وأنت ستذهبين إلى الكوافير، وتتجمّلين، وكلّ شيء سيكون جاهزاً في وقته. لن يكون عليك سوى

الجلوس إلى الطّاولة. حتّى الخدمة سأقوم بها أنا، يسعدني أن أقوم بذلك لمرّة.

وانطلق السيّد في تنظيم الحفل. يعشق ذلك. مساء السبت لا يعمل. تبضّع. وحوالي الخامسة مساءً عادَ محمّلاً بالمشتريات ومتألّق الوجه.

قال لزوجته:

- سيكون أمراً رائعاً. يستحسن أن تضعي المائدة، هكذا سنربح الوقت.

كانت قد صفّفت شعرها للتوّ، وارتدت فستاناً أسود يقارب عمره عشرين سنةً، وقد أعدّت الطّاولة متمكّنة من تزيينها على نحو جميل.

ظهر زوجها:

- كان عليك أن تضعي كؤوس الشامبانيا. سأغيّر الكؤوس. أثناء ذلك أضرمي النّار في المدفأة، فهناك سأشوي شرائح اللحم. وجبةٌ تحفة! وإن استطعت قشّري البطاطس بعد ذلك وأعدّي صلصة السَّلطة. يَعْ، خُضار السّلطة مليئة بتلك الكائنات الصّغيرة، تلك البزّاقات الضئيلة، إنّها تصيبني بالغثيان! هلاّ تكرّمتِ بتنظيفها أنت؟ أنت معتادة على ذلك.

ثمّ، لاحقاً، حين استقرّ أمام المدفأة قال:

- سيكون ثمّة ما يكفي من الجمر. هلاّ أحضَرتِ كأس جِن مع قليل من. . . بالمناسبة هل لدينا حامضٌ لنستعمله مع الجن؟ كلاّ، أنا لم أشترِه، ظننتُ أنّ لدينا منه. كان عليك أن تفكّري في المشروبات المقبّلة، لا يمكن أن أفكّر أنا في كلّ شيء. أعتقد

أنّ «محلّ ماركو» ما يزال مفتوحاً. اقتني أيضاً بعض اللّوز والبندق. وزيتوناً!

وبعد ربع ساعةٍ.

- كنتُ متأكّداً من أنّه ما يزالُ مفتوحاً. لم تضعي بعدُ البطاطس على النّار؟ عليّ أن أراقب اللّحم. أوه! كدتُ أنسَى أمراً... لقد اشتريت بعض الرُبيان من أجل المقبّلات. حضّري بسرعة صلصة بالكريما والكاتشب. لا يوجد كاتشب؟ دائماً لا يوجد شيءٌ في هذا البيت! اذهبي بسرعة إلى ماشان واقترضي منها قليلاً منه.

صعدت السيّدة إلى الطّابق فوقهم، تسأل ماشان بعض الكاتشب. وقد أعارتها ماشان عبوة الكاتشب عن طيب خاطر، لكن كان عليها بالمقابل أن تنصت إليها وهي تسرد مصائبَ يومها، ومصائب حياتها عامّة.

تحت، يرنُّ جرس الباب، المدعوّون بدؤوا في الوصول، على السيّدة أن تنزل.

الرّفاق جلوسٌ حول المدفأة.

الزوج يصيح:

- أين المشاريب المقبِّلة يا مادلين؟

نضجت قطع اللّحم. نضجت أكثر ممّا ينبغي، لكنّ الأجواء جيّدة. يشربون كثيراً. يضحكون. يذكرون كثيراً سنّ مادلين، لكنّه عيد ميلادها في نهاية المطاف. كما يثمّن الرّفاق مزايا الرّجل الذي أعدّ كلّ شيء، ونظّم كلّ هذا.

- إنّه زوجٌ من ذهب.

- إنّك محظوظة به، بعد خمس عشرة سنةً من الزّواج.

- عزيزي! ليس هذا بالأمر الهيّن!

بعد ثلاث ساعاتٍ يسود الصّمت فجأةً.

لقد رحل الرفاق، والزّوج يشخر فوق أريكة الصالون، متعباً، المسكين.

مادلين تفرغ منافض السّجائر، تجمع القنينات الفارغة والكؤوس المتّسخة وقطع الزّجاج المكسور، وتلمّ المائدة.

وقبل أن تشرع في غسل الصّحون، تقصد الحمّام وتمعن النّظر في المرآة.

الانتقام

استدارَ يميناً ويساراً، ولم يرَ شيئاً.

تملّكه الخوف. حتّى أنّه بكى، أو ربّما، فهو غير متأكّد من ذلك لأنّ المطر كان يجلد وجهه.

بالأعلى ثمّة السّماء الرّمادية، وبالأسفلِ الوحل، ذاك ما كان أقرب إليه.

قال:

- لِمَ اخفيت؟ يداك الزجاجيّتين تشبهان ماءَ جداول الجبال الصّافي. في عينيك انكتَبَ الصّمتُ، وعلى وجعك القرف.

وفي اليوم الموالي قال:

- وجهك كالح، متعةٌ للضّحك الحادّ، لكنّني أريد بلوغ الجبل الأبيض، ذاك الذي يبحث عنه المسافرون عبثاً، مشرئبّين من نوافذ القطارات التي لا سكّة لها ولا أمل. مسافرون بلا هدفٍ، حين يحين الوقت، يشنقون أنفسهم على نواقيس الإنذار. هناك يتأرجحون، وأبي معهم، وبين العجلات أطفالنا الذين لم يولدوا، يبكونَ ويصرخون، مليون نجمةٍ إليهم تُهدي السّبيل.

في اليوم الثالث قال:

- من ضُربوا، أخذوا الضّربات دون أن يعيدوها. لكنّهم

صاروا قساةً. عبروا النّهر حين هبط المساء، ومكثوا خلف السيّاج منتظرين ساعة الحساب.

ضُرب حتّى الغرباء.

في اليوم الأخير قال:

لا تسأليني -والشّعر في الريّح-، لا تسأليني من بدأ، لا تسأليني من ختَم. كلّ ما أعرفه هو أنّه كانت ثمّة طلقةٌ أولى.

سأنتقم لك.

رقد بجانب ما كانَ جسدَ امرأةٍ، داعب شعرها المبلول، أو لربّما كان ما داعبَه العشب فقط.

إذّاك ظهر على مدّ البصر مائة رجلٍ في الحقل المزروع رصاصاً، وقالوا:

- متى نتوقّف عن الانتقام لموتانا؟ متى نتوقّف عن القتل والبكاء. نحن الباقون، الجبناء، العاجزون عن القتال، العاجزون عن القتل. نريد أن ننسى، نريد أن نعيش.

تململ الرّجل الراقد في الوحل، حمل سلاحه، وقتلهم عن بكرة أبيهم.

عن مدينة

كانت صغيرةً وصامتة، منازلُها واطئةٌ وشوارعها ضيّقة، وليس بها من جمالٍ مميّز.

لا أدري لِمَ أتكلّم عنها كثيراً، لكن إذا ما صمتُّ، خنقتني الجبالُ التي تحيطُ بها عاليةً مظلمة.

هنا، تكتسي السّماء أحياناً، ساعةَ الغروب، أصباغاً مذهلةً حدّ أنّ النّاس يخرجون من بيوتهم لكي يحاولوا تسمية تلك الألوان. وكانت الألوان تختلط بشكلٍ عجيب لدرجة أنّ لا اسم يناسبها.

تحدثّ عن ذلك من قبلُ كثيراً، كما تحدثّ عن منزلي، لكنّي أغفلت الحديث عن أشجار الحديقة.

على إحدى شجرات التّفاح نعثر، ما إن تبدأ طلائع الصّيف، على ثمار طريّة كالعسل، حتّى وإن لم تكن ناضجة. أيّ مذاقٍ يتّخذه ذاك التفاح حين ينضج؟ لم أستطع معرفة ذلك قطّ، لأنّنا كنا دوماً نأكلها قبل أوانها.

حرمني الأمر من ذكرى، لكن أنّى ليَ أن أدرك هذا وأنا بعدُ طفلٌ؟

الوقت متأخّرٌ. هناك، كانت اللّيالي ساكنةً، حتّى الستائر لا تتحرّك في النوافذ، الصّمت يبسط سطوته على الشّوارع، وكنّا

خائفين، لأنّ ثمّة رجلاً شريراً متلفّعاً بالسّواد متوارياً في الجبال، رجلاً يمشي صوب المدينة ويطرق الأبواب المغلّقة.

قبل أن تشرق الشّمس، ينبغي أن أتحدّث عن كلّ شيء.

عن النّهر، عن البئر وناعورتها المعتمة، عن الصيف المرح الآمن، عن الشمس فوق وجوهنا على السّاعة الخامسة صباحاً، عن حديقة الكنيسة.

كلّ سنةٍ كان الخريف يباغتنا في تلك الحديقة بحفنةٍ من أوراق حمراءَ تسقطُ فجأةً عن الأشجار، بينما نحسب أنفسنا ما نزال في غمرة الأيام الرّائقة.

كان الأمر عجيباً، تسقطُ، تسقط، مشكّلةً على الأرض طبقةً تزداد سمكاً رويداً رويداً، نسير فوقها، حفاةً، الجوّ ما يزال دافئاً، ونحن نضحك، ويبدأ الخوف يتملّكنا مجدّداً.

المنتوج

لم يكن السيّد ب. يعود إلى بيته مبكّراً قطّ. لكنّه مع ذلك كلن يلحق وجبة العشاء مع أسرته. إذ كان يصرّ على أن ينتظره الجميع، لأنّ السيّد ب. كلن يحبّ أسرته كثيراً، خاصّة أطفاله. وأطفاله كانوا ميّالين إلى النّعاس أثناء تناولهم وجبة العشاء المتأخّرة، يأكلون قليلاً، يكونون عصبيّين أو يتباكون.

حين يحسّ السيّد ب. نفسه متعباً، يطلب من زوجته وضعهم في السّرير دون إبطاءٍ. ثمّ يشغّل التلفاز وينام على الأريكة مُصدراً شخيراً خافتاً. بالمقابل، في الأيام التي يكون فيها أفضل حالاً، يقترح على أطفاله أن يلعبوا معاً الورقَ أو الدومنيو، أو لعبة ألواح.

عموماً تعتذر زوجته فلا تلبّي دعوته الكريمة، وتتنحّى تقرأُ كتاباً في ركنٍ من الغرفة التي يسمّونها غرفة المعيشة.

السيّد ب. كان قد سلّم منذ زمن في أمر زوجته. لذا لم يكن يبدي أيّ ملاحظة حول امتناعها عن هذه اللّعب التي تقوّي أواصر الأسرة. فهي ما كانت تملك لا حسَّ الأسرة، ولا حسّ التربية. لكنّها كانت في جميع الأحوال أمّ أبنائه، ولهذا السبب كان السيّد ب. يتجاوز عن عيوبها، لكن الأمر لا يمرّ دون أن يخلّف في نفسه شيئاً من مرارة.

صار السيّد ب. يعود الآن إلى بيته متأخّراً أكثر فأكثر. ذاك أنّ المنتوجَ كان لا يباع بشكل جيد، والسيّد ب. كان رئيس المبيعات. ومن لم يكن يوماً رئيس مبيعات لا يمكن أن يدرك حجم المسؤولية الملقاة على عاتق رئيس المبيعات. كان ينبغي أن يُباع المنتوج، مهما كلّف الأمر.

وبوصفه أجيراً حيَّ الضمير، كان السيد ب. يبذل كلّ ما في وُسعه كي يُباعَ المنتوج، لكنّ نضاله اليوميَ كان يلتهم اللّحظات التي ودَّ هوَ لَوْ خصّصها لأسرته.

عادَ في وقتٍ متأخرٍ جداً من المساء. كان الأطفال قد خلدوا إلى النّوم، وزوجته تقرأ في ركن من غرفة المعيشة، دون أن ترفع عينيها إليه. تناول السيّد ب. ما تبقى من العشاء - بعد أن سخّنه بنفسه- وصعد إلى الطابق، حيث غرفة نومه، منهكاً.

وبيع المنتوج يتقهقر من سيء إلى أسوء، رغماً عن المجهود الخارق الذي يبذله السيد ب.

ليلاً أيقظه شيءٌ يكتم النّفْس. رغب في الحديث إلى زوجته. لكن غرفة زوجته كانت فارغةً. والدواليب أيضاً. وأدراج بدورها. ذهلاً دخل إلى غرفة الأطفال: هنا أيضاً لا أحد.

فكّر: لا شكّ في أنّنا في فترة العطلة المدرسيّة. لعلّي نسيت. أنّى ليَ أن أتذكّر كلّ شيء؟

في اليوم الموالي أخطروه في المكتب بإجازته.

إجازة مفتوحة. كان المنتوج يباع بشكلٍ سيء. وقد عيّنوا رئيسَ مبيعاتٍ جديداً.

عاد السيّد ب. إلى بيته، ومكث منتظراً نهاية العطلة. كان

يتابع من النّافذة الخيوم العابرة. الغبار يجتاح كلّ شيء، والأواني تتراكم في حوض الغسيل. والسيّد ب. ينتظر متسائلاً لمَ طالت العطلة المدرسية إلى هذا الحدّ.

أحسبُ

الآن، ما عاد لي غير أملٍ ضئيل. في ما مضى، كنت أبحث، أتنقّل طيلة الوقت. كنت أرقب شيئاً. ما هو؟ لست أدري. لكنّي كنت أحسب أنّ الحياة لا يمكن أن تكون فقط هذا، كأنّها لا شيء. لا بد أن تكون الحياةُ شيئاً، وأنا كنت أترقّب هذا الشيء، لا بل إنّي كنت أبحث عنه.

أحسب الآنَ أنّ ليس ثمّة ما يمكن ترقّبه، لذا أجلس في غرفتي، جالساً على كرسيّ، لا أفعل شيئاً.

أحسب أنّ في الخارج حياةً، لكن لا شيء يحدث في هذه الحياة. لا شيء ممّا يخصّني.

بالنّسبة للآخرين ربّما يحدث شيءٌ، هذا واردٌ، لكنّ الأمر ما عاد يعنيني.

أنا هنا، جالسٌ على كرسيٍّ في بيتي. أحلم قليلاً، ليس حقاً. بمَ عسايَ أحلم؟ أنا جالسٌ هنا، وفقط. لا أستطيع أن أقول إنّي بخير، فلستُ ماكثاً هنا رغبةً في أن أكون بخير، بل بالعكس.

أحسبُ أنّي لا خيرَ لي في البقاء هنا، كما أعلم أنّني لا محالةَ قائمٌ من مقامي هذا، فيما بعد.

لا بل يعتريني قلقٌ مبهمٌ من بقائي هنا جالساً لا أفعلُ شيئاً،

منذ ساعاتٍ أو أيام، لستُ أدري. لكنّي لا أجد أيَّ سبب يدفعني للنهوض والقيام بشيء. ببساطة، لا أرى، لا أرى قطعاً، ماذا عسايَ أفعل.

بالطّبع أستطيع ترتيب المكان قليلاً، تنظيفَه، نعم بوسعي ذلك.

بيتي متّسخٌ بالأحرى، ومهمل. ينبغي على الأقلّ أن أقوم لأفتح النّافذة، فالمكان يعبق برائحة الدّخان والعفن والانحباس.

لكن لا شيء من ذاك يزعجني أكثر ممّا ينبغي. يزعجني قليلاً، لكن ليس إلى الدّرجة التي تجعلني أقوم من مقامي. لقد اعتدتُ على هذه الروائح، ما عدتُ أشمّها، أفكّر فقط في ما إذا دخل البيتَ أحدٌ... لكنّ هذا الـ«أحد» لا وجود له. لا أحد يدخل.

وحتّى أقوم بشيء، أنكبّ على قراءة الصحيفة الموضوعة على الطّاولة منذ... منذ وقتٍ بعيدٍ، يومَ اشتريتُها...

بالطّبع، لا أكلّف نفسي عناء الإمساك بالجريدة. أتركها على الطّاولة، كما هي، وأكتفي بقراءتها من بعيدٍ، لكن لا شيء منها يبلغُ رأسي أو عينيَّ، لا أرى فيها إلا ذباباتٍ سوداء ميّتة، إذّاك أكفّ عن بذل المجهود.

على كلّ حالٍ، أعلم أنّ في الصفحة المقابلة من الصحيفة ثمّة رجلٌ شابٌ، ليس شاباً تماماً، هو في نفس سنّي بالضّبط، يقرأُ الصّحيفة نفسها في حوض استحمام دائريّ محفورٍ في الأرضِ، يطالع الإعلانات، وأخبار البورصة، مسترخياً تماماً، وعلى حاشية الحوض، طوع يده، كأسُ ويسكي من النّوع الفاخر. يبدو وسيماً، متيقّظاً، ذكياً، عالماً بكلّ شيء.

إذ أتخيّل هذه الصورة، أجد نفسي مجبراً على القيام من مكاني، والذهاب للتقيؤ في المغسلة غير المحفورة في الأرض، المغسلة المثبّتة بغباء إلى حائط المطبخ. فتختنق مغسلة الشؤم هذه من فرط ما ألفظُه.

أندهش لمرأى كميّة القذارة التي يبدو حجمها ضعف ما أكلته طيلة الأربع وعشرين ساعةً الماضية. وإذ أتأمّل هذا الشيء الوضيع ينتابني الغثيان مجدّداً فأغادر المطبخ هرولةً.

أخرج إلى الشّارع لأنسى، أتجوّل مثل الجميع، لكن لا شيء في الشوارع، فقط أناسٌ، ومتاجر، وهذا كلّ شيء.

لا أرغب في العودة إلى منزلي بسبب المغسلة المخنوقة، ولا رغبة بي أيضاً في المشي، لذا أتوقّف على الرّصيف، أُولي إحدى المتاجر الكبرى ظهري وأتابع الدّاخلين والخارجين، وأفكّر في أنّ على الخارجين أن يظلّوا بالدّاخل، وعلى الدّاخلين أن يبقوا بالخارج، هكذا نوفّر قدراً لا بأس به من الحركة والتّعب.

هي نصيحةٌ جيّدة، لكنّهم لا ينصتون للنّصح. لذا لا أقول شيئاً، لا أتحرّك من مكاني، فهنا، بمدخل المتجر، لا أشعر بالبرد حتّى، أستغلّ الحرارة التي تتدفّق عبر أبوب المتجر التي تنفتح باستمرار، فأشعر تقريباً أنّي بخير، تقريباً مثلما كنت قبل قليلٍ حينَ كنت جالساً في غرفتي.

أبي

لم تعرفوه أبداً.

لقد ماتَ.

لهذا غادرت السنةَ الماضيةَ، مع بداية شهر ديسمبر/ كانون الثاني، إلى بلادي التي لا تعرفونها أيضاً.

أربع وعشرين ساعةً في القطار حتّى العاصمة، وهناك ليلةٌ للاستراحة عند أخي، ثمّ القطار مجدّداً، اثنتا عشرة ساعةً، أي ما مجموعه ستٌّ وثلاثون ساعةً من السّفر، إلى أن نبلغ تلك المدينة الصناعية الكبيرة حيث سيدفنون والدي، جرّةٌ بيضاء من الفخار، ثقبٌ صغير محفورٌ في الإسمنت.

ستّ وثلاثون ساعةً بالقطار، مع لحظات الانتظار والتّوقّف، في محطّاتٍ قفرٍ باردة، محاطةً برفاق سفرٍ لم يفقدوا آباءَهم، أو فقدوهم منذ زمن فما عادوا يفكّرون فيهم بالمرّة. أمّا أنا فكنت أفكّر فيه، لكن ما كنت أصدّق.

كان قد سبق لي أن قطعت مسار هذه الرحلة مراتٍ عديدة، أيامَ كان والدي ما يزال على قيد الحياة، وآنذاك كنت أجده بانتظاري، عند نهاية رحلتي، في ضاحية هذه المدينة الصناعية التي ما عاش فيها طويلاً، ولا أحبَّها، ولا تجوّل فيها ممسكاً بيدي يوماً.

أثناء دفنه كان الجو تقريباً ممطراً. كان الحضور كثيراً نوعاً ما، وكانت ثمّة أكاليل وأناشيد، وجوقة من رجال يرتدون الأسود. كانت جنازة شيوعيّة، غاب فيها الكاهن.

وضعتُ باقة قرنفل جنب الجرّة البيضاء، الصغيرة جداً، وما كنت أستطيع التصديق بأنّ أبي فيها، أبي الذي كان عظيم الجسمَ أيّامَ كنت ما أزال ابنته، طفلته.

الجرّة الفخارية لم تكن أبي.

ومع ذلك بكيت حين وضعوها في الحفرة الإسمنتية. صدحت أسطوانةٌ بالنّشيد الوطنيّ الذي نناشد فيه الرّبَ أن يحفظ هذا البلد وشعبَه الذي عانى الكثير في الماضي، وحتّى المستقبل.

وكان على جوقة الرّجال أن تعيد تشغيل الأسطوانة، لأنّ البنّائَيْن لم يعرفا كيف يتصرّفان، لم تكن سدّادة الفتحة تنغلق، الجرّةُ، أبي، لم تشأ أن تدخل في حفرة الإسمنت.

علمتُ فيما بعد أنّ والدي أراد أن يُدفن في مسقط رأسه، لكنّهم أقنعوه -وهو على فراش الموت، مريضاً بسرطان المعدة، يذوي ببطءٍ جاهلاً مرضَه، مرتاحاً بحقن المورفين-، أقنعه أخي وأمّي بأنّ الأفضل هو أن يُدفن هنا، في مقبرة هذه المدينة الصناعية الفظيعة، المدينة التي ما أحبّها يوماً، ولا تجوّل فيها ممسكاً بيدي.

لاحقاً، كان عليّ أن أسلّم على العديد من النّاس، أناسٍ لا أعرفهم، ولكنّهم يعرفونني. كانت النّساء يقبلنني.

وأخيراً انتهي الأمر. مرتجفين، تمكنّا من العودة إلى بيت والديَّ، أقصد بيت أمّي. كان ثمّة ما يشبه حفلة استقبال. أكلت

مثل الجميع، وشربت. كنت متعبةً من السّفر، والمراسيم، والمدعوّين، من كلّ شيء.

قصدت غرفة أبي الصّغيرة، هناك حيث اعتاد أن ينعزل ليقرأ ويتعلّم اللّغات ويكتب يومياته.

لم يكن أبي هناك. ولا كان في الحديقة. فكّرت في أنّه قد يكون ذهب للتبضّع، بسبب كلّ هؤلاء النّاس في بيته. كثيراً ما كان يذهب للتبضّع، كان يحبّ ذلك.

انتظرتُه، وددت أن أراه، لأنّي كنت مضطرّة إلى العودة، أي الرجوع إلى هنا. شربت الكثير من النبيذ، ولم يعد بعد.

انتهى بي المطاف إلى سؤال الحاضرين:

- أين ذهبَ أبي؟

أخذني إخوتي إلى بيتهم، ووضعاني في الفراش. وفي اليوم الموالي رحلت. أربع وعشرون ساعةً، ستّ وثلاثون ساعةً في القطار.

أثناء الرّحلة أخذت أخطّط.

بعد مدّة، سأعود، سأزيل الغطاء عن حفرة الإسمنت، وسأسرق الجرّة، سأدفنه في القرية مسقطِ رأسه، على ضفّة النّهر، في التراب الأسود.

هي منطقة أجهلها، إذ لم يسبق لي أن ذهبت إليها. لكن أين سأدفن الجرّة بعد أن أسرقها؟

لم يحدث قطّ أن تجوّل أبي ممسكاً بيدي في أيّ مكانٍ.

المحتويات

هذا الكتاب

«تفضّل يا دكتور. نعم، هنا. نعم، أنا من هاتَفك. زوجي تعرّض لحادث. نعم، أحسبه حادثاً خطيراً. لا بل شديد الخطورة. ينبغي الصّعود إلى الطّابق. هو في غرفة نومنا. مِن هنا. اعذرني، السّرير غير مرتّب. أنت بالطّبع تتفهمّني، لقد ذهلتُ قليلاً حين رأيت كلّ هذا الدّم. أتساءل أنّى ستواتيني الشّجاعة لتنظيف كلّ هذا. أعتقد أنّي سأذهب بالأحرى للعيش في مكانٍ آخر.

«هي ذي الغرفة. تعالَ. إنّه هنا، بجانب السّرير، على البساط. ثمّة ساطور مغروس في جمجمته. هل تريد فحصه؟ أجل، افحصه. إنّه حقاً حادثٌ بليد، أليسَ كذلك؟ سقط من سريره أثناء نومه، ووقع على هذا السّاطور.

ISBN 978-9922605418

9 789922 605418



الغلاف : سكينة صلوَن